

عزل الالحاد

عمه
بشرق إفريقيا و زنجبار

تأليف
توفيق منجیل

«وبه أربعة عشرة صورة حقيقية»

نقود الطبع محفوظة



اهداء الكتاب

ذهب كثيرون من أصحاب المؤلفات الى اهداء مؤلفاتهم لذوي وجاهة أو
إخاء ممن هم في عالم الاحياء طمعا في نوال مبررة أو تمكين علائق الوداد . وهذا
أو ذاك لم يخرج عن حد طلب منفعة مادية أو أدية
على انني - وان كنت بعيداً عن زمرة المؤلفين - قد شذذت عن هذه
القاعدة التي تكاد تكون مطردة ونحوت نحواً جديداً فاني أهديت كتابي هذا
الى صديقي الحميم « المأسوف عليه » الباقي رسمه بين صفحات هذه الرحلة ليكون
كأكليل أضعه على ثراه الكريم بعد مضي حول على انتقاله من الدار الفانية
هذا واني أجد من نفسي شعوراً بأن تلك الروح الزكية الطاهرة ستبتسم
لهذه الهدية النقية الخالصة



مقدمة

لما كنت تجولت ببلاد شرق أفريقيا وزنجبار وعاشت أهلها مدة من الزمن كافية لدرس أخلاقهم وعوائدهم ألح عليّ الكثيرون من الاصدقاء والمعارف أن أجمع كتاباً شاملاً أهم ما يقال عن تلك البلاد السحيقة ولما لم أرَ مندوحة عن اجابة رغائبهم ألفتُ هذا الكتاب متبعاً فيه دائرة سياحتي مبيناً ما حلّ بي في أثناءها من شقاء ، ونالي من هناء ، يتخلل ذلك الاقوال المطولة عن البلدان التي وطأتها قدماي ، والمشاهد التي شاهدتها عيناي ، وعلى ما أظن أنه جاء غريباً في موضوعه إذ أبنتُ فيه عوائد وأخلاق ومعيشة بلاد جيبوتي ومدغشكر الفرنساوية ، وموزامبيق وكفروريا البرتغالية ، وعدن الانجليزية ، وزنجبار العربية ، كل ذلك بطريقة مفيدة مألوفة لا تخلو من الفكاهة كما سياتي كد لكل من أمعن النظر فيه ، لا سيما وقد زينته برسوم ومناظر حقيقية من باب الحلية والتكيل

والله أرجو أن يصادف كتابي هذا قبولا من كرام الجمهور ، وهو خير مسؤول

توفيق منجیل

الفصل الاول

الرجيل

لاسباب لا محل لسردها بل لا يهم القارئ ذكرها وطنت النفس ووطدت العزم على الرجيل الى أقطار بعيدة لم تكن معلومة او محدودة لديّ تحليصاً من ورطة الفكر القتال . لا طلباً في اكتساب شيء من المال . اذ كما يعلم بعض المطلعين على رحلتي هذه ان لم يكن أغلبهم . اني كنت في عيش رغيد قائماً بمجملتي الشهرية التي لم تكن أقل من سبعة جنيهات ونصف

ففي عصر يوم الجمعة ١٤ ابريل سنة ١٨٩٩ خططتُ بعض اسطر تركتها لمن يهمهم امري . وعند الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم بعد ان انتهيت من اعمال المصلحية وسلمتها لاحد زملائي حسب العادة ركبتُ عربةً غرمتها ١٤٨٩ ومعي حقيبتان (شانطتان) بهما شيء من ملابسي وحاجاتي وربطة فراش صغيرة . ثم قصدت محطة مصر متكرراً حتى لا يعرفني احد اذ ارتديتُ بالطويستري حتى القدمين ووضعتُ عوينات سوداء وكان قبضتي منديل أتلثم به عند اللزوم

ولما وصلتُ كلفتُ حمالاً بنقل أمتعتي الى القطار المسافر للسويس وقد اتباع لي تذكرة في الدرجة الثالثة غرمتها ٢٥٨٢ ومن ثم ركبُ القطار وقد كان باقياً على ميعاد السفر خمس دقائق كنتُ اخالها خمسة ايام اذ كنتُ في وجل عظيم خشية ان يقف احد معارفي على كنه قصدي فيشهره ان لم يؤخرني عنوة عن السفر فيسيئني من حيث يقصد الاحسان

ولما تحرك القطار توسلتُ الى رب العزة ان يرعاني بعينه التي لا تنام ويقويني

على مرارة مفارقة الاوطان والاهل والاخوان . ثم انحدرت عبراتي انحدار السيل من أعالي الجبال واخنتتُ بالبكاء . وما زلتُ على هذه الحال حتى وصلنا الى محطة بنها . وهناك أشغلتُ نظري بالباعة والركاب والمنتظرين وتناولتُ جرعةً من الماء أطفأتُ بها نار ظمائي . ولما عاود القطار مسيره عاودني البكاء وانهار الدمع واستسلمتُ للحنو والحنين وفارقني ذلك الجلد الذي أعهدهُ في نفسي حتى اني كنتُ أخشى تغلب الحنين الى الوطن على قلبي الضعيف فأنوي العودة قبل أن أصل الى السويس على أنني بعد أن قمنا الى الزقازيق أخذتُ أتجلدُ وأحدثُ نفسي بمواضيع شتى ثم تناومتُ وبعد قليل استولى عليَّ النعاس . نعاس الحزن والاضطراب ليس نعاس الراحة . ولذا كان يتخلل نومي حركات مفزعة مخيفة فأنتبه مذعوراً منزعجاً ثم أعاد النوم وهكذا حتى وصلنا الى السويس

وبعد أن أودعتُ أمتعتي أخذتُ أتجول في المدينة . ليس للتفرُّج في شوارعها أو للتفحُّص في معارج أحيائها بل انقياداً أعمى لقوة كانت تدفعني الى حيث لا أدري . وبينما أنا أضرب في ساحة المدينة وطرقها اذ باغثني فكرٌ كان كصاعقة صدمتني حتى كدت أسقط على الارض يا لضيعة الامل ويا لخيبة المسعى كيف ينسني لي الخروج من دائرة بلادي وليس معي جواز السفر . كيف يكون الحال اذا كشف الامر وأرجعتُ رغم أنني الى حيثُ أتيتُ . عندئذٍ ضاق صدري وتنفستُ الصعداء . ومما زاد كربي تذكري قلة تلك الدريهمات التي كنتُ امتلكها وهي لا تزيد عن أربعة جنيهات التي ربما لا تكفي لسفري لاول مينا ترسو عليها البواخر بعد الخروج من القطر المصري

ولكي أفرج عن كربي وأخفف أثقال ورطتي قصدتُ خط السكة الحديد الموصل الى الحوض وركبتُ القطار الى هناك ثم جلستُ باحدى القهاوي وأخذتُ

في الاستفهام من صاحب المحل عن السفر وكيفيته وعما اذا كان يصعب الخروج من البلاد بدون جواز سفر . فأجابني بما هدا روعي وسكن جأشي وأخذ شعلة افكاري اذ علمتُ منه سهولة السفر بدون جواز ليس ذلك فقط بل وامكان النزول بالباخرة بدون تذكرة الا أن الجزاء على هذه المخالفة هو تشغيل مرتكبها بأحد الاشغال مدة سفره حسب أمر القبطان وعند ذلك قلتُ في نفسي وما أنجس تلك الاجرة على مثلي في ظروف حرجة كهذه . وبعد قليل عدتُ للمدينة وأخذتُ أبحث عن مكتب شركة المساجيري ماريتيم ولما مثلتُ بين يدي الوكيل استفهمتُ منه عن يوم وصول الباخرة المسافرة الى الجنوب فعلمتُ منه أنها ستصل في الغد ، ثم سألتُهُ عن قدر الاجرة لاوّل مينا بعد السويس واسم تلك المينا فصمت هنيهة متفرساً في وجهي ثم قال : يفهم جلياً من سوءالك هذا انك غير عازم على جهة معلومة ؟ فأجبتُ ليس ذلك فقط بل وليس معي جواز بالسفر . عند ذلك ازداد تفرساً واندھاشاً وقرأتُ على جبينه أنه ظنّ بي سوءاً ولما لم أرَ بدءاً من ايقافه على حقيقة الحال ابتدرته قائلاً : اني أراك وقد دار بخلدك اني ربما كنتُ مرتكباً جريمة تضطرنني الى الفرار من وجه القانون وحاشائي من ذلك ، وانما أنا شاب براء من كل وصمة حرّ مطلق التصرف في نفسي ولزيادة الايضاح أحيطك علماً انني الى هذه الساعة من عداد مستخدمي الحكومة الا أن هناك أسباباً ليس لها شأن في أعمالي المصلحية حملتني على ترك مركزي ووطني وأهلي واخواني ، كل ذلك دون أن يعلم به أحد فناشدتك الله أن لا تبوح بشيء مما علمتُ بها بطاقتي ويدي فامدد لي يدك لمساعدتي بكل ما في وسعك اذا امكنتك . وعقب هذا الافصاح رأيتُ على وجهه سيّآء التأثير والرافة ثم قال : ولكن أيها الاخ فلان (وقد عرف اسمي من البطاقة) كيف تقدم على أمرٍ خطير كهذا لاتدري عواقبه

وترك وطنك وأهلك وأصحابك ثم تطوّح بنفسك الى حيث لا تعلم أين تكون وكيف تعيش خصوصاً وأنت على غير استعداد ماليّ يساعدك على السفر كما فهمتُ من كلامك . فأجبتُهُ ان ما ذكرتهُ لك هو الصريح وأزيد عليه اني مستخدم من نحو ثمان سنوات بالسكة الحديد المصرية وماهيتي ليست بقليلة بالنسبة لمركزي . فضلاً عن أن نفسي كثيراً ما كانت تحدثني بسرعة الترقية ما دمتُ في هذه المصلحة . ولكن كل ذلك لم يعقني عن تنفيذ رغائبي الحديثة وأطلب من الله أن يعوّضي خيراً في ما فقدتهُ أو ما سأفقدُهُ من الآن . واسمح لي أن أصرح لك بأن ليس في وسعي ان أزيدك علماً بجائتي أو أفصح لك عن تلك الاسباب التي ألجأتني الى ركوب متن الاخطار . وها أنا الآن بين يديك فاعمل ما بدا لك ان خيراً أو شراً

وعند ذلك لم أتمالك نفسي فحوّلتُ وجهي عنهُ خجلاً منهُ وممن معه من العمال حتى انزوت تلك العبرات التي هاجتها تلك الحادثة الوجيزة ثم أشار لي بالجلوس وقال : ان أول مينا هي جيوتي وأجرة الدرجة الثالثة اليها مبلغ كذا . . . فما رأيك . فأجبتُهُ ان ليس معي هذا المبلغ وكل مامي هو أربعة جنيهات عبارة عن مائة فرنك . فأجاب اذا كان الامر كذلك خذ تذكرة درجة رابعة وقيمتها تسعون فرنكاً بما في ذلك الاكل مدة السفر . فقلت . لو فرضنا أن العشرة فرنكات الباقية تكفي مصاريفي هنا حتى وصول الباخرة غداً ومصاريف نزولي بها . فماذا يكون العمل عند نزولي الى مينا جيوتي . فأجابني بعد أن تنهد تنهداً كاد يحرك فيّ عوامل الحزن والتأثر : اذن عليك بتذكرة رابعة قيمتها ستون فرنك . دون الغذاء الذي يلزمك تدبيرهُ وليس هناك طريقة أخرى . ولقد فات حضرتُهُ أن هناك طريقة أخرى اذا اتبعتها يتوفر لديّ كل المبلغ الذي معي

وهي الطريقة التي نهني اليها اليوناني صاحب القهوة في الحوض وهي طريقة دينية وليس من طباعي أن أقدم على مثلها

عندئذ لم أجد بداً من أخذ تذكرة درجة رابعة بستين فرنكاً وقضيت يومي في تحرير جملة مكاتيب ضمنها استغاثي لمصلحة السكة الحديد في قالب رسالة صغيرة لجريدة مصر . وفي الغروب قصدت فندقاً لقضاء الليل به . وبينما كنت أتناول المشاء عرفني رجل يوناني كان رأي وقت الصباح حينما كنت في مكتب شركة البواخر الفرنسية . وكأنه كان عرف من حديثي شيئاً فأراد مساعدتي وعلى ذلك أملى عليّ اسم تاجر يوناني في جيبوتي . وفي الصباح قصدت مكتب الشركة ولما علمت أن الباخرة ستصل عند الظهر خرجت للسوق لاقتياع بعض ماكولات لتكون زادي مدة سفري وجهزت متاعى القليل وعند الظهر وصلت الباخرة ومن ثم انضمت مع باقي الركاب وركبنا (اللانش) الزورق البخاري التابع للشركة لتوصلنا الى الباخرة . ولما وصلنا اليها أعطيتُ أحد توابع مكتب الشركة نحو خمسة فرنكات أجرة نقله متاعى للباخرة وتستره عليّ في سفري بدون (باسبورت) جواز سفر ثم سلمت مكاتيبى الى وكيل الشركة الآنف الذكر ليضعها بصندوق البوسطة بعد مسير الباخرة وقد عرفني باسم تاجر سوري مقيم بجيبوتي وعلى ما علمتُ بعد وصولي لتلك المينا انه كان كتب له عني لمساعدتي

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر (يوم الاحد ١٦ ابريل سنة ٩٩) أقلمت بنا الباخرة المسماة ايراوادي فابتعدتُ عن الوطن المحبوب ولسان حالى يقول
أودعكم والله يعلم اني أودّ بقاءى والخلود اليكم
وما عن قلى كان الرحيل وانما دواعى تبدت فالسلام عليكم

الفصل الثاني

ركوب البحر أول مرة

ولما أبحرت الباخرة تنفستُ الصعداءُ كمن فرّج عن كربته ذلك لعدم عرقلة رحلي الذي لا أعلم اذا كان من ورائه شقائي أم سعادتي . ثم تنهدت تنهد الحزين الكئيب لا ابتعادي عن أرض الوطن المحبوب وشخصت الى السماء قائلاً . اللهم اني أستودع روعي بين يديك فلا تلقني في مهاوي العطب ولا تُثقل عني في أرض غربي ، ولما لاحت مني التفاتة الى الشاطئ هطلت عبراتي وتصاعدت زفرااتي فخلوت على سطح الباخرة واستسلمت للبكاء من هول أمرى في مستقبلي وحنيني الى الوطن الذي كان يخنني وراء الافق شيئاً فشيئاً . وتصورت حالة أهلي واخواني الذين لا يعلمون أين مقري الى هذه الساعة

دنت الشمس الى المغرب وقد مضى عليّ بضع ساعات ولا أزال مجلي الذي أشار به عليّ تابع مكتب الشركة وقت نزولي ، ودقت الاجراس لتناول العشاء وتزاحم المسافرون كلٌّ الى مائدته . أما أنا فتزاحمت عليّ الافكار . وبعد ساعة من الزمن صعدوا الى السطح وقدملاًوا بطونهم وأخذوا يتمشون أزواجاً وفرادى وكان معانجلاً من المساكر الفرنسية قاصدة جزيرة مدغشكر فاجتمعوا وكانوا تارة يطربون أنفسهم بأناشيدهم المسلية وأخرى يتبادلون نكاتهم المضحكة . وهكذا كان المسافرون على اختلاف درجاتهم في سرور وجور حتى الساعة العاشرة ، ومن ثم هدأت الحركة في السفينة واستولى على انحائها سكوت الليل وسكون الراحة وقصد كلٌّ فراشه حيث يكون الناس الهادي الذي تتجدد به القوى البشرية

لتعاود أعمال الانسان الحيوية عند اليقظة

يقولون ان حياة الانسان نفيسة عزيزة لديه . نعم أولئك الذين أتبعتم لهم الراحة . الذين اذا جاعوا أكلوا ما اشتتهه أنفسهم واذا ظمأوا ارتووا بالماء الزلال الصافي واذا تعبوا تمددوا على أسرة الراحة حيث لا يجسر أحد على اقلاق راحتهم . وهم عدا ذلك هادؤ البال غير مطاردين بجيوش الافكار الفتاكة . نعم هؤلاء يصبح القول عنهم ان حياتهم عزيزة لديهم كما كانت حياتي أمس عزيزة لدي . أما الآن فاني أبيعها اذا وقفت الى مشتر بأبخس الثمن لأنها صارت قائمة اللون ضعيفة الامل . فنزد بعض ساعات رأيته حياة ضئيلة وتعب ، وشقاء ووصب ، حياة نكد وهموم ، حياة بلاء وغموم ، ولعمر الحق لم لا يقضي الانسان على مثل هذه الحياة التعيسة فيستريح من كل ذلك بل على الاقل ليفسح المجال لمن هو أجدر منه بالحياة حتى يتمتع بالفضاء الذي يشغله سدى ويجعله من حرّ تنهداته وزفراته كتنوير متقد بالنار . فيا للعاسة ويا لنكد الطالع

الآن الظلام مخيم على هذا انكون وقد أرخى الليل سدوله على عوالم الاحياء . ولكن شتان بين النائم على فراش الراحة الناعم وعليه حل الرضاء والهنائ ثقيه من عوامل الطبيعة حرها وبردها والتمدد على خشب السفينة الصلبة عرضة لهواء الجو البارد وهدفاً للامطار والندى . شتان بين الذي جاع فأكل وظمأ فارتوى وتعب فنام ذاك الذي لم يتبلغ من نحو عشرين ساعة يبلغه وطوى الحشا على الطوى وصارت معدته أفرغ من فؤاد أم موسى وقد جنّ الظلام ولم يكن له مأوى يأوي اليه للنوم . واذا علمت ذلك وما هو الأ نقطة من محيط هل لازات تزعم ان هذه الحياة نظير تلك

ومع ما أنا عليه من الهواجس قهرني سلطان النوم فأغمضت عيني الثقلين

وكان ذلك قبيل السحر وبعد ساعةٍ شعرت أن مياهاً تبللني ولكن لتقل النوم على ذلك الجسم المنهوك القوى تكاسلت وقلت ان هي الا أضغاث أحلام . الا انه لم تمضِ بضعة دقائق حتى صرت مبللاً كمن سجع بملابسه . فقامت مذعوراً وقد تخيلت ان السفينة غارقة ولكنني كنت أسمع ضحكاً متزايداً من حولي فأخذت أحلق بنظري حتى عرفت أن البحارة يغسلون السفينة كماداتهم وبأيديهم أنابيب المياه . وبينما أنا أتقل من امامهم تذكرت سترقي التي كنت متوسداً وبها ساعتي وكل ثروتي التي لم تكن تزيد عن اثنين وعشرين فرنكاً (وهي لدي في ذلك الوقت كنزوة روتشلد) فصرت أنشد ضالتي بين البحارة وكلهم كأنهم تواطؤوا على عدم اجابتي والاكتراث بأمرى . ولحسن الطالع عثرت عليها بعد شق النفس بين المقدوف مع المياه القدرة

اذا تصوّرت في هذه اللحظة أن للطيور أوكاراً وللثعالب أجحاراً وللضواري أوجاراً وللمواشي حتى التي معنا بالسفينة محالاً مخصوصة وكل في مأمنٍ وهدوء وأنا الآدمي التعيس في حالة كهذه أفلا يحق لي أن أعاود الفكر في التخلص من تلك الحياة المؤلمة ؟ ولكن كيف أجسر على ذلك واعتقادي ممكن في أمر تحرّيم قتل النفس وتصوّري ان الضلالة الاخيرة تكون شرّاً من الاولى . اللهم هبني من لدنك صبراً ونعمةً

ومما زاد الطين بلةً هو أنني كما علم القارى لم اكن ركبتُ البحر قبل هذه المرة بل لم يكن وقع نظري على تلك البواخر ولا وطأتها قدمائي . ولذا لم اكن أدري شيئاً البتة من عوائدها وقوانينها ومعاملاتها ولا الى من المشتكى فيها . بل لم اكن أعلم من أين يتيسر لركاب الدرجة الرابعة الحصول على قليل من الماء ولا أين المحال (بيوت الخلاء) وهذه مع الاسف الشديد عرفتُها بعدُ واذ هي ثلاثية مشتركة

ولذا اعتراني عند وقوع نظري عليها امساك مستعصر استمر معي نحو ثلاثة أيام ،
 فحمدتُ الله ، وغاية القول ان عدم خبرتي جعل عندي البلاء الواحد أضغاثاً ، وأنا لم تكن
 هناك طرق لتخفيف الوطأة لم يكن لي سوى التحمل والصبر على الكربة والله المعين
 أشرقت الشمس للمرة الاولى علي بالسفينة ونسيم الصباح العليل البليل بالبحر
 أحسن منه بالبر . وقد حرك في قابلية الطعام فلت الى امتعتي وأخرجت منها
 كسرة من الخبز وشيئاً من الجبن والزيتون وصرت آكلهما وخجلاً نظراً لتعرضي
 في طريق الطالع والنازل والرائح والغادي . وبعد ان ملأت معدتي دنوت من
 اولئك العساكر وصرت انصت الى محادثاتهم . ولم تمض بضعة دقائق حتى
 اشركت معهم في الحديث . ولقد رأيت منهم اخيراً ثرثرة تبرهن على فرط
 جهلهم وغباوتهم فكلهم يعتقدون انهم من الطراز الاول بين البشر . يزعمون انهم
 يفوقون عسكرية المانيا في النظام . والبوير في الصبر والعناد . والهنود في الفروسية .
 والقوزاق في طول القامة . وان دولتهم تفوق بريطانيا في الاستعمار . الى غير ذلك
 من الدعاوى الطويلة العريضة مما يضيق منه صدر السامع . على انهم في الحقيقة
 التي اخبرتها عياناً لا يضارعون الجندي المصري في كل ما يمكن ان يوصف به .
 الا انهم والحق يقال أرق منه في الطعام الذي يغلب ان يكون من الفاصوليا واللحم
 المسلوق ثم تناول التبيد الذي لا يستغنون عنه ظهراً ومساءً . وشيء قليل من
 التعليم الابتدائي

اني لا أريد تكرار ذكر حالتي وندب حظي وإطالة الشرح في وصف ما
 كابדתه من الشقاء والعناء في سفري هذا اذ لا أود تصديق خاطر القراء ، ولولا
 ان ذكر الحقائق حتى في سفاسف الامور تشتاق النفوس لقراءته وثوق الآذان
 لسماعه لما كنت ذكرت ما ذكرته أو سأذكره مما لا يقيه من المصاعب ، وتجشمت

من المتاعب . ولقد يخال لي أن المطلع ربما ينسب لي المبالغة التي أنا براء منها والله عليّ خير شهيد

والآن غداً البصر قليلاً إلى تلك القبة الزرقاء الصافية اللون ونمتع الطرف بفيروزج ذلك الماء الاجاج ونشنف الآذان بعجيج تلك الامواج التي تلاطم بالسفينة فتكسر على جانبيها ثم نخلف عنها تلك اللآلئ الناصعة البياض ، ونهتزل طرباً مع تلك الجارية المتجثرة قهراً والمائسة لا عجباً على عباب الماء ، ونحمرّ خوفاً لا خجلاً عند ذكر تلك الحيتان المتعقبة السفينة لآلتها مفضلاتها ، التي كانت كآنسات وعقيلات يحظن حول عروس عند زفافها ، فما أحبلى تلك المناظر وما أجملها ، فكم تروق لها النواظر ، وتشرح لها الصدور ، وتنعش منها الافئدة . ولكن مهلاً مالي أراني صقتُ صدرًا لذكرها ، ومجبتها نفسي كل ما تخيلتُ مرآها ، حتى كأنني أشعر بدوارٍ لمجرد كتابتي عنها . نعم ان لي العذر في ذلك ، فالحقيقة ان النفس لا تصبو الى تلك الحالة الا اذا كانت على الياسة . حتى اذا ركب المرء متن البحر سثم وملّ وضجر بعد ساعات قليلة . كيف لا والمناظر عند الصباح هي هي ظهراً وعصراً ومساءً وليلاً . أي كيف تكون حال من يسمع نعمة واحدة أياماً متواليات . الا ان يخال لي أن من لم يركب البحر أوشك على فهم ما أقول ، ولذا لا نزاع اذا قلت ان ركوب البحر تصويره لطيف ، وحقيقته انقباض ليس له تصريف ولا تخفيف أرى ان في نفس القارئ حاجة ؟ وما تلك الحاجة اكثر من سؤالٍ خطر بباله طبعاً عند ذكر البحر وركوبه ووصف عليل نسيه . وها أنا عجيب حتى لا تبقى حاجة في نفس يعقوب

نعم ، من الغريب اني لم أصب بدوار البحر ولا افكرت في شيء من هذا القبيل ، ذلك مع عدم توفر شرط من شروط الراحة لديّ وعدم سبق ركوبي

البحر كما علمت . وما علتُ ذلك إلا من حرج المركز الذي أنا فيه وتراكم الافكار المقلقة ليلاً ونهاراً . وثمة القول ان دوار البحر لا يحدث غالباً إلا من زيادة التفكير فيه واستسلام الانسان للوهم منه . وكلما نشط المرء وملاً معدته والتهى في محادثة أو قراءة أو لعب شيء ابتعد عنه الدوار ولم تبق له سلطةٌ عليه وهذا ما اخبرته بالخبر لا بالخبر

أما الآن وقد أجبك على ما تريد فدعني أقول : قدمضى علمنا أربعة أيام ونحن نشق عباب البحر الأحمر جنوباً ، فعند العصر ظهرت لنا عن بعد جبال العسب التي على الشاطئ الغربي من بحيث جزيرة العرب جنوباً فددت يدي الى حثيبي وأخرجت خريطة أفريقيا التي كانت معي ، وبعد أن بسطتها أخذت أسرح طرفي في عرضها ، وإذا بأحد المسافرين بالدرجة الاولى دنا مني واستأذني في النظر فيها فإذا هو انجليزي الجنس . ثم ابتدأ يسألني عن وجهتي وأشغالي المستقبلية . فوقف على حالتي من مجمل اجاباتي . وبعد أن تركني ومضى يتمشى عاد اليّ قائلاً : هل تستطيع السفر الى حيث البحيرات العظمى بأفريقيا (فيكتوريا والبرت نيانزا) ؟ فأجبتُهُ بالإيجاب . ثم قال : ربما يمكنني أن أوجدك معنا فيما بعد ، أما الآن فلا يتسنى لي ذلك إذ أني أحد رجال ارسالية قاصدة تلك الجهات لتخطيط السكة الحديدية . ومجتمعنا في بلدة مومباسا (التابعة لزنجبار) بشرق أفريقيا فابق بجيبوتي وبعد اجتماعي بباقي رفاقي القادمين عن طريق رأس الرجاء الصالح أخذ آراءهم عنك ولا أخالهم إلا موافقين وطبعاً اننا سنتدبر في أمر قلقك الينا وما عليك الآن إلا اعطائي عنوانك وتشجع . فشكرته على مسعاه وانعطافه نحوي

وفي يوم الخميس علمنا اننا اقتربنا من جيبوتي . وكان المسافرون متلهلين كما هي العادة عند الاقتراب من اليابسة بعد حرمان النظر منها بضعة أيام . وما أتت

الساعة الحادية عشر مساءً حتى لمخنا بعض أنوار فعلنا انا خارج المينا . وعند
الساعة الثانية عشر (نصف الليل) ألقت السفينة مرساها ، فقلق النائمون لاقطاع
حركة الآلات التي كانوا تعودوا سماعها ليلاً ونهاراً
واذ كنا أقبلنا من السويس في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الأحد ووصلنا
جيبوتي في منتصف ليلة الجمعة تكون مدة سفرنا مائة وخمس ساعات تماماً . أما معدل
مسير الباخرة فكان نحو اثني عشر ميلاً بحرياً في الساعة



الفصل الثالث

جيبوتي

« الوصول الى جيبوتي ، الإقامة في كوخ ، المرض ، وصف جيبوتي ، زميل مصري »

في الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ٢١ ابريل سنة ٩٩ وطأت قدمي أديم أرض لم تكن تخطر لي ببال من يوم نشأتي . وأبصرت عيني وجوهاً وأشكالاً وأزياء غير التي تعودتها باصري ، وطننت في أذني أصوات ليست بالتي ألفتها . وبعد نظرة من عمال الجرك الى متاعي القليل قصدت احدى القهاوي . ولما طال بي الجلوس رأيت أن لا بد لي من المثول امام ذلك الشاب الذي سمعت عنه بالسويس وهو يدعى حنين ملحمه فصرت أقدم رجلاً وأخر أخرى لما أصابني من الخجل ولكن هي الضرورة توجب أكثر من ذلك . فلما وصلت اليه حييته وقدمت له نفسي ثم علمت منه أنه أناه كتاب وفيه توصية عني ممن ذكرت آنفاً . وبعد أن تبادلنا السؤال والجواب وبسطت له ما كان من أمري قدمت بين يديه القطعة التي تساوي عشرين فرنكاً قائلاً له : ان هذا كل ما أملكه فتدبر في أمري ليكون لك الاجر والثواب على اعالة شاب غريب ليس له نصير في هذه البقاع سوى المروءة والانسانية ، وكنت ألفظ ذلك وعبراتي تجري . وبعد أن لاطفني دعا أحد الصوماليين الذين يستخدمهم أحياناً وأمره بالبحث عن محل أقيم به . وعند الظهر تناولنا الغداء معاً . وبعد العصر عاد الصومالي وعرفنا بوجود كوخ مناسب وأنه استأجره بأربعة رويات شهرياً (على ما أتذكر) وفي الحال أردت الانتقال اليه . وبعد مسيرة نحو خمسة عشر دقيقة وراء ذلك الصومالي نخترق صفوف أكواخ

الوطنيين المصنوعة على نسق منتظم يجعل الطرق على هيئة خطوط مستقيمة متقاطعة مع بعضها وقف الصومالي امام كوخ . ثم حلّ حبلاً يربط الباب (عوضاً عن القفل) واذا هو عبارة عن سياج من الخيش يحيط بدهليز ليس فيه سوى حفرة باحدى الزوايا - ولا أزيد ايضاحاً عن منفعتها - ثم غرفة على هيئة قبور ذات باب صغير وهي وسقفها من القش المجدول على فروع أشجار ولكنها متينة تقاوم الريح . وبعد أن رتبت مسكني أو بمعنى أوضح وضعت متاعي باحدى الزوايا وقرطلاً للماء بزاوية أخرى . خرجت وربطنا الباب بالحبل الذي ليس له أدنى فائدة سوى ابقاء الباب موصداً لعدم دخول المواشي مثل المعزى وما شا كلها . ثم عدنا الى صاحبي ، فاستفسرني عن الحالة (وما الذي أجاب به في مثل هذه الظروف سوى اظهار المعنوية والرضا وابداء علامات التشكر) على ان الحقيقة انني لما رأيت ذلك الكوخ انتبضت روحي واضطربت اضطراباً ما عليه من مزيد . ثم أخبرني صاحبي ان أقارب ذلك الصومالي هم جيرانى ولا خوف عليّ (ولا هم يحزنون) . ولما تناولنا العشاء قصدت مسكني ومعى الصومالي مرشدي . وبعد ان فرشت فراشي ارضاً خارج الغرفة التي خشيت من انها تكون ملجأً للهوام والحشرات انصرف الصومالي بحجة انه متزوج وتمددت لشدة التعب بعد عناء السفر . ولكن كيف أستطيع النوم وهذه الليلة الاولى وأنا في وسط أقوام متبربرة لا أعرف من عوائدهم شيئاً ، خصوصاً واني في مكان كهذا ، وخوفاً من تسلطن النوم عليّ تربعت وأخذت أشخص الى السماء المرصعة بالنجوم ولم أجد ما أقضي به ليلتي الحالكة السواد (حقيقةً ومجازاً) سوى استسلامي للافكار والبكاء والتعيب . ولا مغالاة اذا قلت اني بقيت على هذه الحالة حتى انبتق نور الصباح . عند ذلك نقلت فراشي لداخل الغرفة واستلقيت على ظهري واستولى عليّ سبات عميق ، ولم أفق الا وقد مالت الشمس

الى الغروب ، فلبست ملابسي وهرولت مسرعاً الى صاحبي وقصصت عليه خبري فطمنتني عن عدم تجاسر أحد بالاعنداء عليّ خصوصاً وان أقارب ذلك الصومالي هم جيري كما كان أخبرني . فتناولنا العشاء وبعد برهة انقلبت راجعاً الى حيث يحلولي البكاء في تلك العزلة

كم كنت أود أن لا أكثر من ذكر الاختناق بالبكاء وتردد الزفرات وسكب العبرات حتى لا أوجد في نفس القارئ شيئاً من الانقباض ، ولكن ما العمل وأنا لا أسطر سوى الحقيقة ، وكيف لا أذكر ذلك وحالتي كانت دائرة على محور الحزن والالم والشقاء ، فلو كانت تقيض ذلك لكنت أفرغت ما في جعبتي من ذكر مرادفات الهناء والصفاء والسرور والحبور . والغاية اني وصلت الى اني لا أعرف بماذا أسميه ؟ وعما اذا كان يصح تسميته بمنزلي أوربعي أو داري لاني تضايقت من لفظة كوخ الثقيلة في اللفظ . كما واني أرى من جهة أخرى ان لفظة عشة عامية لا أرضاها وليس تحت يدي الآن بعض الكتب حتى أستعين بها للبحث عن كلمة أخرى فيا للذاكرة الضئيلة ويا لشر من تصدى للكتابة وهو خالي الوطاب حقاً انه يلقي بنفسه في مهاوي الانتقاد ويكون هدفاً لسهام التفرع إما لخطأ في الكلام أو سوء في التعبير أو تقصير في انتقاء الالفاظ وسلسلة الجمل وانسجام الكلام . ولكن دعني من ذلك فاني أراي اكتب ما اكتبه ليس لفائدة غيري في اللغة والانشاء الامر الذي ليس في وسعي وهو بعيد عني بعد الثريا عن الثرى انما أنا كمن يقص على أبناء وطنه بلغته الدارجة ما رآه في تلك البلاد لوقوفهم على بعض الشيء منها سواء كان ذلك من باب العلم بالشيء أو من باب التفكه ، لاسيما واني على ما أظن أول من كتب بعد مرأى العين في هذه السنين الاخيرة عن تلك الاصقاع القاصية التي تكاد تكون أشبه بمجهولة وخصوصاً لدى أبناء وطني

وأراني شططت في وادٍ آخر كل ذلك لعدم تذكري لفظة أطلقها على ماوأي، ولي الحق في ذلك اذ لا يقال اني لأنسى مسميات أصعب وأقل استعمالاً منها، من مثل كناس الظبي، وجحر الضب، وعرين الاسد، ووجار الضبع، ووكر الطير، ومذود الاتان، وخدر العروس، وعش الغراب، وبرزخ الميت أو رمسه أو جدته، وصومعة الراهب. وهكذا من مسميات كثيرة التي أتذكرها دون أقل عناء فكر. وتلك الكلمة الحقيمة (اسماً ومسمى) تجعلني في ارتباكٍ عظيم - أي - قد مرت على بالي الآن لفظة يمكن اطلاقها على المحل الذي أقيم به ألا وهي لفظة (خص) وقد سمعت هذه الكلمة كثيراً بالوجه القبلي ولكنني لا أتذكر وقوعها تحت نظري كتابةً ولذا سأتجنب ايرادها ثانية حتى أتتحقق منها. مع انها تعجيني كثيراً للتقارب لفظها الى كلمة «خوص» الذي يقام الخص منه أو مما يشابهه. وخصاصة لاختصاصها بساكني الخص نظيري

وبوصولي رأيت أن الخادم اكرى لي سريراً مصنوعاً من حبال مجدولة على قوائم خشبية (عجريب) فتمددت عليه مرتاح الضمير لزعمي عدم امكان وصول الحشرات اليه. وقد كنت حصلت على شمعة، ولكن لرقادي في الحوش خارج الغرفة لم يمكن ايقادها نظراً لعبث الهواء بها، فاكتفيت بالنظر الى ضوء السرج الطبيعية وما أحلاها. وعند منتصف الليل شعرت بقشعريرة شديدة وسخونة عظيمة أعقبها اسهال حتى انني عند الصباح حاولت الخروج للوصول الى صاحبي ولكن لم استطع البتة الانتقال من محلي فلبثت متمدداً والاسهال يتزايد سخابة ذلك اليوم ثم شعرت بضعف شديد فرأيت ان أدعواحدى جاراتي اللاتي كن في طرب ورقص ذاك الوقت. فجاءتني منهن اثنتان ومع اني أجهدت نفسي لتفهمهما ان تصل احدهما الى ذلك الصاحب وتبلغه أمري الا ان أقوالي ضاعت سدى.

فأشرت الى احضار من يفهم لغتي . فلم تفهما أيضاً أو ربما تجاهلنا لعدم الانتفاع مني . عندئذ سلمت أمري لله وعادته النزاع من شدة الضعف . وقد زادني البكاء تعباً . وبعد ذلك اشتدت عليّ وطأة الحمى فنبت عن صوابي وصرت أهرق وأنزعج من لاشي . وفي اليوم التالي فارقني الحمى قبل الظهر . وعادني الاسهال الحاد وكنت أجيل النظر حولي فلا أجد شيئاً يعضج ولا يشرب سوى قرطل الماء الذي خيمت عليه العناكب ولوئته الاقدار . ولم أجد مناصاً من تناول جرعة منه لأبلى طرف لامي الجاف وحلقومي الملتهب . وهكذا أمضيت ذلك اليوم واليلة الثالثة لمرضي . وقبل الصباح زارتني من تكره زيارتها ، ولعبت معي دورها الممّ فلم أفق إلا بعد الظهر . ثم رأيت ان الاوفق لي الخروج حتى اذا سقطت ميتاً في الطريق يكون أوفق لديّ من أن أقضي هنا ولا يعلم أحد بأمرني . فتشجعت وارتديت ملابسني وخرجت قاصداً صاحبي الذي لم يفكر بي مدة ثلاثة أيام متواليات ، وكنت أرى ان الارض تكاد تميد بي أو تهرب من امامي . ولما وصلت الى محله وجدت الباب مقفلاً فعلت انه نائم ولم أستصوب ايقاظه خشية الشغل عليه . فقصدت احدى القهاري . وهناك اضطررت مع خلوة ذات يدي أن اطلب فنجاناً من الشاي . وبعد أن تناولته شعرت بشيء من النشاط ولكن الاسهال أزعجني . ولما رأي صاحب المحل بهذه الكيفية ساعدني على ما أريد . وبعد ذلك أخبرته بعدم قدرتي على دفع ثمن الشاي وقدمت له ساعتني رهينة حتى يدفع عني صاحبي القيمة المطلوبة مني . فابى الرجل قبول الساعة وبدأت عليه علامات الشفقة والتأثر . ومن ثم عدت الى صاحبي الذي اعتذر بعدم معرفتي محل اقامتي اذ ان الخادم الذي كان اكثرى الكوخ طلع الى الجبل منذ ثلاثة أيام . وبعد قليل أحضر لي جانباً من الشورية (الحساء) وعند المساء شعرت بتجدد قواي نوعاً

وفي اليوم التالي قصدت رجلاً يونانياً كنتُ سمعتُ عنه بالسويس ليساعدني على إيجاد عمل أعيش منه . فأخذني وتوجهنما معاً الى منزل رجل سوري الجنس يظهر من لهجته انه أقام طويلاً بمصر واسمه الخواجه ابراهيم حداد . وبينما كنا نتعارف على ذكر بعض أشخاص مصريين . اذ خرجت زوجته الينا قائلة انها انصرت كثيراً لسماع لهجتي المصرية التي هي لهجتها . وأخيراً تناولت معهم الغداء وانصرفت

وفي الايام التالية كنتُ أتردد على مكتب شركة السكة الحديدية الفرنسية وبعد مقابلتي مع الباش مهندس العمومي الذي بيده مقاليد امور الشركة رجوته ثانية وثالثة بل أُلححتُ عليه لالحاق بي عمل . فأخذ اسمي ووعدني باجابة الطلب في ظرف هذا الاسبوع . ومن نحس الطالع انه لم يمضِ على وعده يومان الاً وصدر الامر بايقافه وايفاف كل العمل لسقوط الشركة في ارتباك مالية نتيجة تلاعب بعض كبار الموظفين

أما جيبوتي هذه فهي ميناء تابعة لفرنسا واقعة في بوغاز باب المندب على شاطئ أفريقيا الشرقي على الدرجة الثانية عشر من شمال خط الاستواء ومنها تقوم الركبان والقوافل الى الاراضي الحبشية وفيها تبتدئ السكة الحديدية الجاري تركيبها الى تلك البلاد ، وهي عبارة عن جبين أحدهما القديم المكون من أكواخ قائمة في وسط سهل يقطنه الصوماليون ولفيف من فقراء الاعراب وهم عراة حفاة لا يسترون سوى عوراتهم . وعيشتهم قدرة حقيرة وكلهم يُستخدمون في الاشغال الدنيئة من مثل حمل الاحمال ونقل البضائع وهلم ، والأول مسلمون غير انهم همج متبررون أشداء البأس محبوبو الفتك والسلب . وغداؤهم يكاد يكون قاصراً على الادرة أما المحوم فنادرة

ثم الحَيّ الجديد وهو للاجانب وبه مبانٍ مناسبة قليلة متفرقة ومخازن للتجارة وثلاثة فنادق وثلاث محلات عمومية (قهوي) وغنّزات وبه مكتب للبريد والتلغراف معاً . وتوجد على مسافة نحو كيلو متر بعض أبنية لشركة السكة الحديد ويستقون الماء من الآبار وهو يباع في الطريق بثمن غال . وقد يمكن للانسان أن يطوف كل هذه البلدة على القدم في ظرف أربعين دقيقة . وشمسها محرقة قتالة حتى ان كثيرين من الاجانب يسقطون أمواتاً في الطريق من ضربة الشمس . وأرضها مقفرة عارية من كل ورقة خضراء ولذا ترد لها بعض الخضضر من الخارج كالقطر المصري وغيره . ويحكم البلد حاكم فرنساوي . وبها نفرٌ من العساكر السود أولاد السنغال . وهي تبعد عن عدن بحراً بمسافة لا تقلُّ عن عشر ساعات وفي عصر يوم الخميس الموافق ٥ يونيه سنة ٩٩ أي بعد اقامتي بتلك المينا خمسة عشر يوماً وصل وابور البوسطة الفرنسية الآتي من أوربا والسويس . فينا أنا جالس امام حانوت صاحبي الذي كان ذهب لاستقبال الباخرة حتى يستلم بضاعه الواردة بها اذ لمخه عائداً ومعه زميلٌ لي في مصلحة السكة الحديد المصرية وهو أيوب افندي جرجس . فهذا كان علم بنواياي قبل رحيلي بيومين وقد كان أخبرني انه يودّ اللحاق بي بأول باخرة بعد سفري . فتمانقنا وكدت أطيّر فرحاً لمراه . وفي الحال ناولني مكتوبين أحدهما بداير اسود (حداداً عليّ) وهو من شقيقي والثاني من صديقي الحميم (المأسوف عليه هنري بك خياط) وفحوى المكتوبين رجاء وتوسل لعودتي وقد أرسل لي شقيقاي مائتي فرنك . مصاريف عودتي الى مصر وعرض عليّ الصديق العزيز بآخر كتابه بقائي بجيبوتي مادمتُ أصرُّ على عدم العودة حتى يرسل لي مبلغاً يعينني على الانتقال من جهة الى أخرى الى أن تيسر لديّ الامور فحررتُ مكاتيب رافضاً بها كل تلك الطلبات . وبعد التروي مع زميلي

أحضرت متاعي من ذلك الخص واستأذنت من الخواجه حنين في السفر مع ابداء
 الشكر الكثير له وقد أعاد لي العشرين فرنكاً مع رفضي قبولها مرات . وعلى ذلك
 قصدت مع زميلي الباخرة بعد الغروب . أما التذكرة فساخذها من ذات الباخرة
 لاننا لم نبت للآن على نزولنا بأي بلد

الى هنا وانقضت أيامي الخالكة بجيبوتي ومن يعلم بأيامنا المستقبلية وكيف تكون
 والله مرجع الامور



الفصل الرابع

ركوب البحر المرة الثانية

« مشاهدة عدن^(١) ، وجزيرة مدغسكر ، وعاصمة بلاد موزامبيق »



في الساعة العاشرة من مساء يوم الخميس ٥ مايو سنة ٩٩ أبحرنا مع الباخرة الفرنسية « ناتال » وفي الصباح كنت قررت أنا وزميلي أن أخذ تذكرة الى ميناء « بايرا » وبعد السؤال من الكومساري علمنا أن ثمن التذكرة بالدرجة الثالثة نحو اثني عشر جنياً فأرأينا أن لا مناص من أخذ تذكرة بالدرجة الرابعة بالغذاء فكان ثمنها لا يقل عن مئة وثلاثة وتسعين فرنكاً . وعليه لم يتبق من الثمانية جنيهات سوى سبعة فرنكات ، خلاف العشرين فرنكاً الأولى

وعند الساعة التاسعة صباحاً من يوم الجمعة دخلنا ميناء عدن الواقعة جنوب بحيث جزيرة العرب شمال خليج عدن فنزلنا للبر وإذا هي ميناء حربية ذات قلاع وحصون تابعة للانجليز . وهي محط رحال التجار الذين يقصدونها من بلاد الهند فأوربا وبالعكس وتنقسم الى قسمين :

عدن الجديدة وثقع على شاطئ البحر تماماً وبها مبانٍ كبيرة فاخرة على منحدر الجبل وتحت سفحه وامامها الحدائق والشجيرات فتزيدها بهجة ورواء وبها فنادق للغريب . وأعظم تجارتها البن الوارد من داخلية بلاد العرب وبلاد الاحباش التي يرد منها الزبد أيضاً ثم ريش وبيض النعام وكثير من الائمة الحريرية الهندية والدخان وبها عربات للركوب بالاجرة

(١) مضافاً الى وصفها . ما شاهدته في نزولي بها مرة أخرى

وعدن القديمة وتبعد عن تلك بنحو أربعة كيلومترات وهذه ليس بها سوى
أحياء الاهالي وأسواقهم، ولوصول النازل من البحر إليها أو الى داخلية البلاد لا بد له
من المسير فيا حدى طريقين أولاهما مضيق ذو تعاريج وارتفاع وانخفاض يخترق
الجليل الحائل بين الشاطئ والبلاد ، والثانية طريق منقور في بطن الجبل (نفق)
لا يقل طوله عن كيلومتر وهو مشعل بالمصابيح آناء الليل وأطراف النهار لشدة
ظلامه ولسهولة مسير العربات به ومن هذا النفق يدخل الانسان في نفق آخر
أقل طولاً من الاول

أما حرارتها فحدث عنها ولا حرج وهي تكاد تكون كحرارة جيبوتي المحرقة
المهلكة . ولكونها من المواني الكبيرة ترسو عليها المراكب الانجليزية وبواخر الشركة
الالمانية وبعض مراكب شركات أخرى في ذهابها وإيابها ويوجد فيها من نقود
ممالك كثيرة وهذه بايدي صيارف طوافين من يهود العرب ، ويمكن ان يصرف
الجنيه الانكليزي بنحو مائة وخمسة غروش صاغ او واحد وعشرين شلن أو
بسبعة وعشرين فرنك ، لان عملة البلد السائرة بين الحكومة والتجار هي الجنيه
الانكليزي (طبعاً) والروية الهندية الانجليزية التي كل خمسة عشر منها تساوي
جنياً أما اذا كانت الروية (المستعملة في مستعمرات المانيا) فصرفها يكون بالممارسة
ولا تقل قيمة الجنيه منها عن ثمانية عشر روية مع ان قيمة الفضة في الرويتين واحدة ،
فضلاً عن انه في بلاد شرق افريقيا اعتبار الاثنين واحد . وليس بهذه المينا ديوان
جرك لمعاونة البضائع الصادرة والواردة من ذلك وما هذا الا لسهولة تقدم البلد
واتساع نطاق التجارة بها حتى اذا نمت وشبت فيها الحضارة والمدنية والاحوال
التجارية ضربت على صادراتها ووارداتها الضرائب وهذا شأن سياسة الاستعمار
الانجليزية ، فيا لله ما أحسنها من سياسة مقرونة دائماً أبداً بالنجاح

وعند الساعة الثالثة ونصف من مساء ذلك اليوم مخرت بنا السفينة تحتقرق خليج عدن وبعد يومين أخذت تشق عرض المحيط الهندي الذي لحسن الحظ كان هادئاً ساكناً حتى عند الساعة الثالثة من صباح يوم ١٣ منه وصلنا الى ميناء دياجو سوارس بشمال جزيرة مدغسكر التابعة لفرنسا

ولما انبلج نور الصباح نزلنا بها وأخذنا في التطواف في انحاءها واذ هي عبارة عن سهول واسعة ذات تربة تميل الى الاصفرار مكسوة بالخضرة الطبيعية التي ترويتها الغيوث الهتانة وهي حديثة العهد في العمران وقد رأينا بها شجر اللبخ وأخذنا شيئاً من زهره المدعو « ذقن الباشا » ثم عيدان من قصب السكر هائلة الطول ووقع تحت نظرنا اتفاقاً شجيرة قطن أنبتتها الطبيعة واذ عودها يضاهي عود الاذرة النيلية طولاً فاستنتجنا من كل ذلك ان أرضها خصبة للغاية ، ولكن لما كان الاهالي المدغسكريون (ويسمون بالمجاش) كسالى خاملين فبهم لا يهتمون بالزراعة مطلقاً بل يكتفون بالاعمال الحقبيرة التي ليس من ورائها سوى كفاف العيش ، وهم يتكلمون لغتهم المجاشية والفرنساوية أيضاً . أما ثروة هذه البلاد فأهمها من خشب الآبنوس والبقر البري الذي يصطادونه فيستانس في بضعة أيام ثم يصدرونه الى مستعمرات شرق افريقيا وجنوبها ، والثور الذي يساوي في مصر نحو عشرة جنيهات مثلاً لا يزيد ثمنه هناك عن أربعين أو خمسين فرنكاً على الأكثر ، والحكومة هناك مستعدة لاعطاء أراض لمن يريد أن يزرعها ويستغلها وبعد مضي مدة معينة يدفع عنها للحكومة شيئاً زهيداً من المال لا ثبات الملكية وبعد ذلك تضرب عليها ضرائب طفيفة . ومع ما عليه الاهالي من الفاقة الا انهم ومنازلهم على غاية من النظافة ولونهم أحمر أسمر وتندر فيهم ملاحظة الوجه وهم قصار الشعور ضخام الشفتين جداً ، ويجوز للغريب (الايض) ان يدخل مساكنهم ويفعل ما سوات له نفسه الامارة بالسوء ولا هناك من يعارضه

في ذلك حسب ما عودهم شعب الامة الحاكمة ، وقد اتفق ان أحد الفرنسيين الذين كنا نصطحبهم أراد الدخول في أحد المساكن فأخبره رجل كلت جالساً بقرب الباب بأن ليس بالمنزل أحدٌ ، فانتهره الفرنسي قائلاً : صه أيها اللجاشي فنحن سادة هذه البلاد . ويوجد هناك بعض من أهالي جزائر البوربون والسيدات منهم مليحات الخلقه نحيفات القوام لا يعيبن سوى لونهن المائل للاصفرار قليلاً ، وعلى ذكرهن أقول ان النزول في جزائر البوربون يجوز له أن ينتقي واحدة منهن حتى من بنات المدارس لتقيم معه الى أجل غير مسمى مقابل أجرة ثقاضها شهرياً حتى اذا أراد الافتراق منها لضيق ذات يده أو لسبب آخر كان له ذلك ولو كانت رُزقت منه بأولاد

وبعد أن قصصنا شعورنا وحلقنا ذقوننا عدنا الى الباخرة وانتقلنا مع أمتعتنا الى باخرة أخرى أصغر من الاولى تسمى « لا جيرونند » حسب المعتاد

ونحو الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم أقلعنا من هناك ، وما كنا نرى في المحيط الهندي سوى كلاب البحر التي كانت تدنو الى خط سير المركب صفوفاً منتظمة وهي تقفز في الماء قفزاً للوصول اليها زاعمةً انها غنيمة باردة فتلتهمها حتى اذا اقتربت ورأت فعل المركب بالمياه تشتت شملها واختفت تحت سطح الماء ، ثم الاسماك الطائرة وحجم الواحدة منها حسب التقدير النظري لا يزيد عن حجم السمانة الاً انها مستطيلة عنها وهذه الاسماك تطير أسراباً على ارتفاع نحو متر تقريباً فوق سطح المياه وذلك هرباً من صوت ضرب آلات الباخرة وتستمر طائرة الى بعد نحو مائتي متراً وزيادة

وحوالي الساعة السابعة من صباح يوم ١٧ منه دخلنا ميناء جزيرة موزامبيق عاصمة بلاد موزامبيق التابعة لدولة البورتغال ولما وقعت أبصارنا ونحن بالباخرة على

أرض هذه الجزيرة العاصمة تذكرنا جهة قصر النيل وبولاق المشرقة على نهر النيل لأنها تماثلها تماماً بل إن الأرض المقابلة لها تكاد تشبه منظر الجزيرة (منتزه القاهرة) وبعد أن نزلنا إلى البر أخذنا نجول في الشوارع والطرق واذ هي غاية في البهجة والنظافة والنظام . ورأينا فيها سوقاً يحيط بها سور عظيم وبيع فيها الدجاج والبيض واللحم والفواكه : منها الموز وفاكهة القشطة وجوز الهند وقصب السكر الذي يوازي العود منه ثلاثة عيدان من القصب المصري والبرتقال وهذا أصغر حجماً وأقل حلاوة من برتقال بلادنا وفاكهة تسمى باباز أشبه بالشم ثم سوقاً أخرى منتظمة تباع فيها الاسماك وهناك كنيسة عالية منقوش عليها تاريخ تشييدها وهو في سنة ١٨٠١ ثم مدرسة للفنون والصنائع ومحلات لوكلاء وقناصل الدول وقلعة حصينة على مدخل المينا قيل لنا انها مبنية من نحو أربع مائة سنة تقريباً . وبالإجمال فإن منظر تلك المدينة لا يقل عن منظر شبرا والعباسية وممته ولكنها والحق يقال أكثر نظافة . أما الحركة التجارية فيها فبطيئة جداً أو هي تكاد تكون معدومة لاننا في أثناء تجوالنا في أغلب الشوارع لم نر أحداً ماراً من الاهالي أو النزلاء ، ومن الغريب ان ليس بها محلات عمومية يأوي إليها الغرباء كالكهاوي والفنادق ، ومحلات التجارة لا تمتاز عن هيئة أبواب المنازل بشيء ما اذ ليس عليها (يافطات) أو أي علامة ترشد النزيل إليها ولعل لهذا وذلك أسباباً لم نتوصل إلى معرفتها لقصر مدة مكثنا بها وعدم وجود مرشد يفهم محادثتنا حتى كنا نستعلم منه

أما الاهالي الاصليون فهم سود هج قبيحو المنظر يشبهون اللجاشيين في ضخامة الشفتين وبروز الخدين ويزيدهم قباحة التهاب أفواههم وتلف أسنانهم لافراطهم في أكل الشته الكاوية وهم مدمنون رجالاً ونساءً على تعاطي شراب مخدر مصنوع من ماء جوز الهند وقد لبثنا بتلك المدينة من الصباح إلى بعد الاصيل

ثم ودعناها وفي النفس شيء لمشايتها لبلادنا كما ذكرت

وفي الساعة الخامسة من مساء ذات اليوم أقبلنا ووجهتنا الجنوب وسرنا في خليج موزامبيق المحصور بين جزيرة مدغشكر وموزامبيق وفي صبيحة اليوم التالي أرغى البحر وأزبد وصارت السفينة تميل ذات اليمين وذات الشمال حتى ان كثيرين من المسافرين اعتراهم ما اعتراهم ولم يجدوا مفرًا من ملازمة فراشهم وقد كنا نزعم انها رياح ولا تلبث ان تنقشع ولكن خاب قائلنا لان الحالة استمرت سخابة ذلك اليوم والليلة التالية وعند السحر رأينا ان ما كان من البحر أمس لم يكن بالذي يذكر اذ هاج البحر وماج وتلاطمت السفينة بالامواج وصارت تعلو بنا ثم تنخفض كأنها ستقذف بنا من حائق الى مهاوي العطب ولما كانت تصطدم بتلك الامواج التي كانت تعترضها كانت المياه تتراكم ثم تطفي على سطحها فتغسله أما نحن فكنا نقاب تارة على ظهورنا ونتكفي طوراً على وجوهنا

ولا تسئل عن سوء حالتنا في ذلك الوقت وما أحاط بنا من الهموم والاكدار التي لازمتنا فلم نتخلص من شرها الا باقترابنا من ميناء بايرا وهي المينا التي تقصدها فعند ما ظهرت لنا أشباحها تهللنا فرحاً حتى عند الظهيرة من يوم الجمعة ١٩ مايو دخلنا المينا وألقت السفينة مراسها وحمدنا الباري ولما كانت الامطار تهطل في ذلك الوقت فضلنا البقاء قليلاً ريثما تكف ولكننا لما علمنا ان أمطار هذه الاصقاع يطول مداها تأهبنا للنزول وبعد ان استحضرننا متاعنا نزلنا بقارب لرجل يوناني في سن الكهولة يعرف قليلاً من العربية فتوسمنا فيه خيراً زعماً منا انه يرشدنا الى ما فيه راحتنا اذ تربطنا واياء رابطة متينة هي فضل بلادنا على أبناء جلدته ان لم يكن في معرفته القليلة بالعربية ما يجعله يحنو ويصبو اليها لتذكر أبناء تلك البلاد وما هم عليه من اللطف والكرام الغريب ويجدري الاعتراف قبل ختام هذا الفصل والدخول

في تلك البلاد السحيقة بأن كل ما كان لدينا من الدراهم وقت ركوبنا ذلك القارب
لم يكن أكثر من اثنين جنيهه
وليدعنا القارىء الآن في القارب تتحدث مع صاحبنا اليوناني والامطار تهطل
علينا ولا شيء يقينا بالله



الفصل الخامس

بايرا ييلاد كفروريا وسوء حالتنا فيها

فلما وصلنا البرّ عرضنا متاعنا لعمال الجرك وكلهم من البورتقالين وبعد أن
أخلوا سبيلنا سألنا ذلك اليوناني صاحب القارب عن الأجرة التي له . فأجابنا انها
عشرة شلن أو هي نصف جنيه (أو بمعنى أوضح ربع مالتنا) فاندھشنا اندھاشاً
ممزوجاً باضطراب وبعد أخذٍ وردٍّ آكتنى بستة شلنات ثم رجوناہُ لمرافقتنا حتى
يرشدنا الى احدى المحالّ فأبى فسخطنا عليه وبعد أن حملنا أحد المييد شيئاً من
نصف متاعنا وحملنا نحن الباقي بأنفسنا أخذنا نسير في البلدة ولما كانت أرضها رملية
كان سيرنا فيها عسراً جداً . نعم ان بها رصيفاً من الاسمنت ولكن لم يقع نظرنا عليه
(لان الغريب أعمى) الى أن تقابلنا مع (بدال) بقال يوناني يعرف بعض كلمات عربية ولما
استفهمنا منه عن محل المييت بعلمنا منه أن أجرة النفر عن الليلة الواحدة في الفندق
نصف جنيه ثم أشار علينا بأن نقصد محل رجل سوري اسمه رزق الله جبور وهو
يدبرنا في الامر فعاودنا المسير في تلك الرمال ونحن في غاية التعب والمضايقة منها
فضلاً عن المضايقة التي تعتري كل نزيل في بلدٍ ليس بها من أبناء وطنه أو من
يفهم لغته حتى يفرج عنه كربته . ولما وصلنا الى المحل الذي تقصده رأينا شاباً
وهو ابن ذلك التاجر ويكاد لا يتقن التكلم بالعربية فأجلسنا حتى جاء والده وقدمنا
له ولما علم الرجل بطلبنا أشار على ولده بأن يخصص لنا اودة أجرتها الشهرية
اثنان جنيه فصعدنا اليها وقد أتت زوجة صاحب المحل واذ هي سورية فاضلة متكلمة
ثم وضعنا متاعنا في تلك الاودة الحالية وفرشنا فراشنا الذي لنا وبعد قليل حضر

الينا شاب سوري عليه سيماء الدين مستقيم اسمه موسى قزاح فبعد أن حيانا أخذ
يحادثنا عن سوء حظه لعدم حصوله على عمل منذ بضعة أشهر بعد تنقله الى جهات
مختلفة وكان يظهر عليه الضنك وضيق ذات اليد

وعند المساء دعانا ابن صاحب المنزل لتناول العشاء عندهم والمائلة لا تزيد عن
الرجل وزوجته وولدهما. والرجل لا يعرف الكتابة والقراءة ولكنه من الغريب يتقن
التكلم بلغات كثيرة وهي الانجليزية والفرنساوية والبرتغالية والرومية والكفورورية
ولغته العربية ويفهم الهندية وشيئا من الصينية. أما الزوجة والولد فيعرفان الانجليزية
حق المعرفة كتابة وقراءة وتكلماً ثم يحسنان التكلم بالبرتغالية والكفورورية
ويفهمان شيئا من الفرنسية وهذا بخلاف اللغة العربية ولقد تأكدنا أن هذا
الرجل كان رحل الى هذه البلاد بمائلته الخفيفة الحمل ومعه زورقان للتعدي ثم أخذ
في أسباب التجارة والمقاولات حتى صارت له أملاك عظيمة هناك ومركب شرعي
تجاري كبير وبضع زوارق بخارية وشرعية ومحل تجاري فيه أشياء من الملابس
وكثير من المشروبات الروحية وهو وولده يباشران الأعمال بهمة لا تعرف الكلال
أما الزوجة فتباشر الأعمال الحساية والكتاية بخلاف تدير الأمور المنزلية وبعد ذلك
قصصنا أودتنا ونمنا نوماً ثقيلاً إذ انها الليلة الاولى على البر بعد تمضية خمسة عشر
يوماً بالبحر

أصبحنا وإذا بالغزالة ثلثلاً والنسيم العليل يهفف فينمش الفؤاد وما عهدنا
بتلك الأرجاء إلا التأفف من حرها لوقوعها في المنطقة الحارة فخرجنا نطوف في
انحاء البلدة ومعنا ذلك الشاب السوري وعند الظهر ابتعنا خبزاً وسرديناً إذ لا قدرة
لنا على التوسع في الاكل بأكثر من ذلك فأكلنا غذاءنا بشهية عظيمة ولا ندرى
إذا كانت هذه الشهية وجدت فينا نظراً لتغير الطقس علينا الذي كان وقتئذ

جبلًا أو لحرماننا وقصر يدنا عما هو آخر من ذلك ثم شربنا ماء زلالاً صافياً كاد ينسينا عذوبة مياه نيلنا . وهكذا كانت حالتنا قاصرة على الاكل والشرب والنوم والتفسيح مدة ثلاثة أيام

أما البلد فواقعة على الدرجة العشرين جنوب خط الاعتدال على شاطئ البحر تماماً ومساحتها لا تزيد عن ثمانية كيلومترات مربعة وأبنيتها متفرقة عن بعضها صحية جداً وكلها من الخشب والتوتيا (الزنك) لعدم وجود محاجر في تلك الجهات وأتربة يعمل منها الآجر وأشكال تلك المباني على الطراز الاوربي الحديث متوفرة فيها شروط الراحة والانس وسقوفها من التوتيا مائلة على الجانبين وبدواثرها محار حتى اذا هطلت الامطار نزلت على السطوح وجرت في المجاري وصبت في صهاريج كبيرة جداً مصنوعة من التنك ومنها يشرب أصحاب المنازل . وماء المطر قراح نقي لذيد جداً لا يعرف بعظم لذته الا من أسعده الحظ وتمتع بمذاقه

ولما كانت الارض رملية يتعسر فيها السير عملت الحكومة رصيفاً من قواقع ومحار البحر ومغطى بالاسمنت يمتد على طول شوارع البلدة ولا يجوز للعبيد أهالي البلاد ان يمشوا عليه ومن يخالف يضبطه رجال البوليس الذين هم من البورتغالين وقلمنا يكتفون باشباعه رفساً ولكما دون ان يجسوه ، وفي وسط الشوارع خطان حديديان ضيقان تجري عليهما العربات المنكسحة (اللوري والترولي) الخصوصية لركوب أصحابها وتقل بضائهم بها من جهة لاخرى وذلك مقابل اشتراك سنوي يدفعه صاحب العربة للحكومة

وبهذه المينا جمر ك يعد ضربة على التجارة الواردة من بلاد غير بلاد البورتغال فمثلاً كيلو الاحذية يدفع عنه خمسة شلنات ولتر الاسبرتو ثلاث شلنات ولذا لا يباع هذا الصنف الاخير في البلدة وأقل ما يدفع يكون باعتبار المائة خمسة وعشرين

بمعنى انه اذا وردت لشخص بضاعة قيمتها مائة جنيه كان جرهما (ولا يصح ان أقول عشورها) خمسة وعشرين جنيهاً وأجرة الخانوت الصغير لا تقل عن ثمانية وعشرة جنيهات ، اني اذكر ما شاهدته وعلته في سنة ١٨٩٩ أما الآن فلا بد أن تكون ضربت ضرائب فادحة على محلات التجارة اذ كانوا شكلوا مجلساً من ولاية الامور والتجار وسنوا لائحة مبدئية وتعريفية عن الضرائب التي تخصص على كل محل تجاري حسب الاصناف التي تباع فيه مقسمة الى ثلاث درجات وأظن ان الحكومة نفذتها من العام الماضي

وعلى ذلك كانت أثمان البضائع على اختلاف أنواعها مرتفعة جداً مثلاً الكسوة (البدة) التي تساوي بمصر خمسين فرنكاً لا يقل ثمنها هناك عن مائة فرنك ورباط الرقبة باثنين شلن ولا يباع بمصر بأكثر من نصف شلن وقد اشترت مرة قميصين بجنيه ومثلها لا يباع بمصر بأكثر من ثمانية فرنكات ومع كل فالبلبوسات لا تعتبر أثمانها غالية بالنسبة لغيرها

والمشروبات من مثل البراندي والجن والابسنت والوسكي الخ يباع الكأس منها في بعض المحالّ بشلن وبعضها بنصف شلن وزجاجة البيرة باثنين شلن ونصف والمأكولات أغلبها من اللحوم والبقول المحفوظة أو الملحقة الواردة من الخارج وهذه لا تزيد أثمانها كثيراً عن أثمانها بمصر أما اللحم البقري (وهو وارد مدغسكر) فالكيلو منه من ثلاثة الى اثنين شلن بحسب نوع اللحم الذي يرغبه المشتري والكيلو من لحم الغزلان على أنواعها وبقر وجاموس الوحش (البوفالو) وحلوف البر فمن اثنين شلن الى شلن ونصف ولحوم الصيد هذه لها فضل كبير على البلاد وهي غريضة ولكنها لا تحوي شيئاً كثيراً من الدسم ما عدا الحلوف ومع ان الدجاج لا يعيش كثيراً هناك الا انه رخيص فالواحدة منه بشلن ونصف

أما البيض فكنت أودّ عدم ذكره لاني ناظم عليه لحرمانى منه ذلك أن الاثنتى عشر
 يضة لا يقل ثمنها عن خمسة شلنات وتارة يرتفع الى ستة بمعنى ان ثمن البيضة
 الواحدة نحو غرشين صاغاً الى غرشين ونصف ولذلك لا يوجد هذا الصنف عادة الا
 على موائد الكبار والذوات

والخضارات نادرة الوجود وقد كان يرد منها القليل من جهات بعيدة ، اتفق
 انا رأينا عند بائع خضارات خيارتين ذابلتين وربطة فجل صغيرة وبعد الاستفهام
 علمنا ان ثمن الخيارتين شلن وحزمة الفجل نصف شلن فوليناهُ شطر ظهورنا وتعوّذنا
 بالله وأقسمنا ألاّ حرمانا أنفسنا من هذين « الدرايقين » ييلاد كان بها ثمن الفجل
 والخيار هكذا

وقد يستغرب القارىء لعدم معرفته للآن موارد الكسب والارتزاق في هذا
 البلد القفر اذ قد رأى مما تقدم انها ليست زراعية ولا صناعية ولا تجارية على ان
 الحقيقة ان هذه هي المينا الوحيدة الموصلة الى مستعمرة سالسبورى البريطانية بواسطة
 خط حديدي يمتد منها ويمرّ على نقط بها معادن ذهبية مثل « مساكيسه » وغيرها
 وهذا الخط عبارة عن فرع من سكة حديد (نابوليون افريقيا) سسل رودس
 المشهور الممتدة من مدينة رأس الرجاء الصالح المقال عنها انها ستصل يوماً ما بسكة
 الخرطوم فالقاهرة وكل آت قريب

أما الآن وقد علمت ذلك فوجود الاجنبى بتلك الجهات إما للاستخدام في
 الاعمال الكتاية أو الادارية لدى الشركات والسكة الحديد والمعادن وإما أن
 يكون ذا صناعة كنجار أو برّاد وسوق أصحاب الصنائع رائجة جداً فالصانع النجار
 لا تقل أجرة يومه عن خمسة عشر شلناً والبرّاد أو الخراط (الميكانيكي) من جنيه
 الى أكثر وإما للتجار الذي فيه كل الربح ، كما ان الخادم (الجارسون)

في الفندق أو العامل في محل تجاري تبلغ أجرته شهرياً ما بين خمسة عشر إلى عشرين جنيهاً واذ عرفت ذلك يتأكد لك قدر الربح الذي ترجحه مثل هذه الحال وإنك موجود في بلاد الذهب

ولما كنت بتلك الجهات كان لا يزيد عدد الاجانب بها عن ألفي نفر ما بين بورتغاليين وبريطانيين وفرنساويين وإيطاليين ويونان وهنود وخمسة سوربيين وثلاثة مصريين

ولقد يستغرب القارئ من قولي ثلاثة مصريين اذ المعلوم لديه اني أنا وزميلي فقط، فمن أين هذا الثالث يا ترى؟ نعم هو رجل يدعى سليم وهو أمي وأصله من ناحية الاهرام وقد كان توجه الى السويس من بضع سنوات ومنها ركب احدى البواخر بدون أجرة فاشتغل في تقديم الفحم ثم صار يتنقل من بلد الى أخرى في شرق افريقيا وكان تارة يستخدم وقاداً (عطشجي) بالسكة الحديدية وأخرى بمراكب البحر وما أشبه ومعدل ما يكتسبه شهرياً خمسة عشر جنيهاً وهو راضٍ بعيشته تمام الرضاء ولقد فرحنا عند ما رأيناه يكلمنا فجأة بلغة بلادنا خصوصاً بلهجة أولاد البلد المضحكة وهو الآن يتكلم الانجليزية والكفرورية وشيئاً من البورتغالية ويلوح لي من كراهة هذا الرجل لوطنه انه ارتكب جرماً في بلادهم الجأه للهرب والاختفاء من وجه القانون والله أعلم بالحقيقة

أما الاهالي الاصليون فهم عبيد همج لا يدرون شيئاً من الكون سوى انهم يأكلون وينامون وغداؤهم الآن الارز المبلول بالماء البارد أو الساخن دون شيء آخر ثم لحوم الصيد مهما كان نوعها التي يشوونها شيئاً ويتلذذون بأكل ما كان منتناً منها وهم يعافون أطعمة البيض واذا أكلوا منها قليلاً مشيت طبيعتهم وصورتهم في الذكور أحلى منها في الاناث ويستخدمهم الاجانب في قضاء حاجاتهم الحقيرة واذا

خدم الواحد منهم شهراً يكلّ ويملّ الخدمة فيترك محل خدمته اما علناً أو خفية
والارجح الاخير ويذهب الى حيث أقاربه في الغابات وهناك يواصل ليله بنهاره في
النوم والتمدّد مكثفياً بتدخين بعض أوراق من شجر معلوم عندهم أو يستعملونه بصفة
سعوط وإذا اشتدّ عليه الجوع ينام على بطنه، وهم عراة حفاة لا يسترّون من أبدانهم
سوى سواتهم. ومن المضحك أن الواحد منهم إذا خدم شهراً أخذ أجرته عند آخر
الشهر وقيمتها نحو عشرة أو خمسة عشر شلناً ويذهب الى المحال التجارية الصغيرة
وينتقي له قبعة (برنيطة) فيكون عاري البدن حافي القدم وعلى رأسه برنيطة بنحو
نصف جنبه أو أكثر أو أقل وأما يتنازع بها موسيقى أو سكيناً أو قيصاً أو شيئاً من
السوار أو الحجال من نحاس أو حديد ولبس هذين محتمّ عليهم وقد أخذ الاجانب
يقلّدون أولئك العبيد في لبسهم السوار في المعصم، ومنهم المولعون بشرب الخمر
كالجن والبراندي والنيذ حتى ان العبد يقصد إحدى الحانات المخصصة للعبيد
ويشرب بكل ما تملكه يده في برهة من الزمن وما ذلك كله إلا لأنهم لا يعرفون
ماذا يعملون بالدراهم فهم لا يطبقون الملابس على أجسادهم ولا الاحذية في أرجلهم
وغذاؤهم من لدن نخدومهم وما دام الامر كذلك فالدراهم ليست ضرورية عندهم
ولقد تعب المرسلون في تربية القليل منهم ولكن ذهب اتعابهم ادراج الرياح
ولغتهم عبارة عن خليط من لغتهم الهمجية والفاظ هولندية وانجليزية محرفة
عن اللفظ الحقيقي ومن باب التفكير أذكر بعض ألفاظ منها: فثلاً (بويالايا) تعال
هنا (هامبا) اذهب (موشله) حسن وتفيد أنواع المدح (موزنجو) الرئيس أو
الايض (كايه) البلد أو المكتب أو المنزل (آيكونا موشله) ردي وتضمن كل
الذم (زوا) الشمس (امفورو) المطر (مانزي) الماء (باس) سيدي (فوتساك)
امش وتفيد الطرد (كوكيزاتي) اعمل الشاي (موني) صباح الخير أو مساء

الخبر الخ فالكلتان الاخيرتان محرفتان عن الانجليزية والتان قبلها عن الهولندية ،
وكما علمت أثناء وجودي بزنجبار ان لغة كفروريا منها شيء من لغة زنجبار
فيستنتج من ذلك ان لغة التفاهم في بلاد كفروريا وموزانبيق وزنجبار وتقريباً كل
سواحل أفريقيا الشرقية الجنوبية كانت واحدة ثم طرأ عليها اختلافات وتحريف
حتى صار يصعب على الزنجباري أن يفهم الكفروري وما أشبه

أما الطقس فعلى قسمين من اكتوبر الى مارس يكون الحر شديداً والامطار
تهطل بدرجة هائلة ثم من ابريل الى سبتمبر يكون الطقس لطيفاً بارداً ويندر في
هذه المدة نزول الامطار

والعملة السائرة في الحكومة هناك هي العملة البورتغالية واكبرها قطعة من
الفضة تسمى (كينيتو) تزيد قليلاً عن نصف الريال المصري وتجزأ الى نحو
ستمائة جزء يسمى ريس وكل مائتين ريس تساوي فرنكاً تقريباً وحساب صرفها
بعملة أخرى مخمل جداً فتارة يصرف الجنيه بعشرة كينيتو وأخرى باثني عشر
ولذلك فالتجار يفضلون العملة الانجليزية وهي الجنيه والشلن وأجزاءهما وكذلك
العملة الترنسغالية (قبل الحرب) وقيمتها كقيمة الانجليزية تماماً إلا ان عليها من وجه
صورة الرئيس كروجر ومن وجه آخر الشعار الترنسغالي وثلاث كلمات بالهولندية
وتعريبها « بالاتحاد تكون السعادة »

وهناك مصرف (بنك) كبير انجليزي للحوالات واستبدال النقود بورق وبالعكس
والآن اکتني بما ذكرته عن بايرا وما بها ومن بها وأعود لحالتنا (أنا وزميلي)
فانا بعد أن لبثنا نحو أربعة أيام قدّمنا الخواجه رزق الله جبور الى مأمور ادارة
السكة الحديد فطلبنا منه أن يوظفنا ضمن نظار أو معاوين المحطات لعلنا بقدرتنا
على هذا العمل ولكنه رأى عدم امكان ذلك ومعه الحق اذ لا يقال ان مصرياً

يستطيع القيام بعمل ناظر أو معاون محطة في سكة حديد انجليزية عملها وعملها
وركابها ودفاترها بالانجليزية ومن الانجليز، فعرض علينا وظائف كومسارية فلم تقبل
زعمنا اننا نجد أشغالاً أحسن منها في ذات الشركة أو بعيداً عنها وأخيراً أخبرناه
اننا ندرى فنّ التفراف فأمر بامتحاننا وبالاسف رأى اننا أقلّ قوة وسرعة من
التفراجية البريطانيين خصوصاً لعدم المامنا باختصارات الالفاظ الكثيرة وعلى ذلك
عدنا من لديه بحقيّ حنين، وبعد يومين نفذت ماليتنا ولم يتبقّ لدينا سوى شلن
واحد فضننا به على أنفسنا ونمنا ليلتنا نسامر النجم وفي الصباح لم تقو على الجوع
فابتعنا به خبزاً واكنا نصفه وفي الظهر اكنا الباقي وفي الليل غمنا كالليلة الماضية،
وفي اليوم التالي رأينا أن نطلب من الحواجه رزق الله أن يقرضنا شيئاً ولما كنا في
غاية الخجل اقترعنا من منا الذي يقصده فأصابني القرعة ولما ذهبتُ اليه بثتُ
اليه حالتنا وأطلعته على سرّائنا وضرّائنا وبعد كلامٍ طويل كانت النتيجة عدم
اجابة الطلب وأيدت رفضه زوجته الفاضلة بحجة ان حركة الاشغال واقفة وكيت
وكيت، وعند العصر دعونا الشاب السوري وبعد أن ساررناه سلمنا له ساعتنا وخاتماً
كان في أصبع زمبلي لرهنهما على أي مبلغ حتى نسد رمقنا وبعد ساعة عاد
الينا وناولنا جنينها فارتأى زمبلي أن نأكل اكلةً فاخرةً تموّض علينا ما فقدناه
بالجوع فاشترينا كيلو من اللحم وأدخلناه التنور ثم أخذناه الى أودتنا وصرنا
ننشه نهش الكواسر لا تأخذنا عليه رحمةً حتى التهمنا نصفه وأبقينا النصف الآخر
الى اليوم التالي

ثم قصدنا مأمور الادارة وأخبرناه اننا قابلون وظائف كومسارية فأجابنا انه
سينظر في الامر عند عودة المدير العمومي من السفر في هذا الاسبوع، ومع اننا
كنا مقتصدين جداً في الاكل بمعنى اننا لا نأكل سوى خبز وجينة أوزيتون

من ذلك الجنه (بعد تلك الاكلة التي هاضت الاكل وأحرمته ما كل) . الا أنه بعد مضي ثلاثة أيام لم يتبق منه سوى شلن واحد وبعد اعمال الفكرة في صرفه استصوبنا أن نشترى به دخاناً اتباعاً لقول من قال . ان التدخين مشبع (وأظنه الدكتور الصليبي الذي كان ذكر ذلك ضمن رسالة له عن مضار التدخين وفوائده دُرِجت بالمقتطف منذيف وعشر سنوات على ما أتذكر) وعليه اكتفينا بالتدخين وشرب الماء سخابة يومين أُصبنا في الثاني منها باسهالٍ شديد حتى اننا أصبحنا في اليوم الثالث ولا قدرة لنا أن نبدي حراكاً فكنا نشخص الى السماء بوجود شاحبة وأعين غائرة وأنفاس متقطعة ونقول : لماذا تخلّيت عنا يا الله : وعند الظهر تذكرنا رجلاً سورياً يبيع سلماً في الطريق واسمه الخواجه أمين أبو فهد فقلنا ربما ان هذا الرجل تأخذه الرأفة ويقرضنا ما في استطاعته فأرسلنا في طلبه وبعد قليل حضر إلينا وبيننا نحن نبسط له أمرنا بالحيط والابرة قاطعنا الحديث لشدة تأثره وأفرغ بين أيدينا كل ما كان يجيئه واذ هو أربعة جنيهات وقال : خذا هذا المبلغ الآن وسأحضر لكما اثنين جنيهه آخرين . عند ذلك قلعت ألسنتنا ولم نستطع أن نفوه بنت شفة حتى ولا بكلمة شكر لهذا الكريم . أما هو فذهب تَوّاً الى منزله وعاد مسرعاً ويده الاثنان جنيهه ولقد كنا نودّ من كل قلوبنا أن نمانق ذلك الرجل الاممي الفاضل على فرط خنوّه الذي لم نجده في غيره صاحب الآلاف مع انه لم يكن يملك سوى ما أقرضنا اياه ، ولكن غريب كرمه أشلّ أيدينا وعظم سخائه أخرس ألسنتنا

وفي اليوم التالي الموافق ١٢ يونيه سنة ٩٩ أرسل مأمور الادارة في طلبنا ولما مثلنا بين يديه قال لنا انكما قبلتما وظائف كومسارية وعلى ذلك ساعينكما ولكن اعلمنا ان الاشغال خشنة صعبة جداً بدرجة تفوق تصوّركما وان مسؤوليتكما عظيمة ومن

يهمل في أشغاله يطرد خارجاً ولا يكون له حق المطالبة باستحقاقه وان نتج عن
اهماله ما يضر بصالح الشركة فلا بد من سجنه في سجن الحكومة المحلية فهل وعيتما
ما أقول؟ والله كدنا أن نتردد إلا أننا لما تذكرنا ما حل بنا من الضيق أجبناه
بالقبول وعندئذ دوّن سكرتيره عنوان عائلة كل منا (لتعريفها عند وقوع القضاء
المبرم وانقضاء الاجل) وبعد أن حررنا جوابي التعيين برسم ناظر محطة القسم
الواقع في وسط الخط أخبرنا ان ماهية كل منا عشرون جنيهاً ثم سلم لنا تذكرتين
للسفر في نفس اليوم الى مركز أعمالنا وعلى ذلك كانت مدة وجودنا في بايرا نحو
أربعة وعشرين يوماً لم نعمل في أثناءها عملاً أو نكتسب درهماً



صاحب السياحة ما بين چیبوتي وبارا

الفصل السادس

الاستخدام في السكة الحديد ووصف العمل وصعوباته

عند الساعة السابعة ونصف من مساء ذلك اليوم توجهنا الى محطة بايرا ومعنا متاعنا ولما استعدَّ القطار ركبنا وسافرنا عند الساعة الثامنة ونصف مساءً وبعد مسيرة نحو نصف ساعة وقف القطار في نقطة لم تكن محطة بل بها صهرج مياه فأخذت القاطرة كفايتها منها وعادت المسير وبعد نصف ساعة وقفنا ولما مددنا أبصارنا من النافذة لم نر سوى أشجار وحشائش لان الظلام الحالك لم يمكننا من رؤية المحطة ففضلنا النوم ونحن في مقاعدنا اذ لا فائدة من بقائنا على يقظة ومن شدة ارتجاج القطار كنا نستيقظ تارة وننام أو نتناوم أخرى

وفي الساعة الثالثة ونصف صباحاً وقف القطار على محطة بامبوكرليك وهي المحطة المركزية التي نقصدها ولشدة الظلام لم نعرف اذا كانت مكاتب المحطة على يميننا أم يسارنا فصرنا نتلمس ونصطدم في أشجار الموز ونتعثر في قطع خشب حتى اهتدينا الى المكتب فرأينا هناك عاملاً وبعد أن سلمناه جوابينا وتذكرتينا سألناه أن يتكرم علينا بارسال أحد الحفراء لنقل متاعنا من القطار الى حيث نقضي بقية الليل فما كان منه إلا أن قابل كلامنا بالضحك والاستغراب وأخيراً أجابنا بعدم وجود من يحمل لنا أمتعتنا فاضطررنا الى حملها بأنفسنا معولين على ايقاد بعض عبيدان من الكبريت لاهتدائنا الى الطريق وبعد قليل حضر ناظر المحطة وأوصلنا الى أودرة فوضعنا بها أمتعتنا وتربعنا بجانبها حتى الصباح ولما أشرقت الشمس قصدنا الناظر فأرشدنا الى مستودع أسرة قوائنها من خشب وسطحها من خيش

فانتقينا اثنين ونقلناهما الى أودتنا ثم كتب الناظر تذكرة لصاحب (الكاتنين)
 باعتمادنا ضمن العمال واعطائنا ما نريده من مأكل ومشرب وملبس مقابل
 ايصال منا بقيمة ما نأخذه وعند الظهر دخلنا ذلك الكاتنين وأكلنا وعلما ان ثلث
 الاكلة الواحدة شلنات ونصف ثم أخذنا نجول في ساحة المحطة التي لا تقل
 في الاتساع عن ميدان عابدين واذ هي عبارة عن مكتبين للمحطة والتلغراف (كل
 الابنية بالحشب والزتك كما في بايرا) وثلاثة صفوف من الاود يبلغ مجموعها نحو
 خمسة وأربعين أودة. يتخيل لناظرها انها ثكنة عساكر وكل أودة بها نفران
 كلها للكومسارية والسواقين والعطشجية والبرادين وغيرهم ثم منزل على حدة للناظر
 وملاحظ الواورات والتلغرافي ثم مظلة للعنابر وورشة الواورات ومخزن كبير للمهمات
 والادوات والارز وعلى بعد من هذه الابنية الكاتنين وهو متسع جداً وبه أودة
 المائدة تكفي لجلوس أربعين شخصاً وبها يانوعومي لكل من يدري اللعب عليه
 ثم قاعة كبيرة للشرب (وقوفاً على البنك) وبها بلياردو كبير وثلاث غرف للنوم
 ومحال للعمال وما أشبه وبه المشروبات كافة وتصنع فيه أطعمة تكفي أربعين أو
 خمسين شخصاً وهي من البطاطس والفاصولية ولحومات الصيد والعصيدة الانجليزية
 (البودنج) بخلاف أصناف المحفوظات الكثيرة ثم أصناف من اللزومات الأخرى
 مثل أحذية وملابس تيل وأدوات شاي وكل ما هو ضروري لمثل هؤلاء العمال .
 وعلى بُعد رمية حجر من الكاتنين يوجد محلاً بضائع لتجار هنود وآخرا للمشروبات
 فمكتب البوسطة ثم منزل قومندان الجهة البورتغالي وبجانبه محل للسين وهذا كل
 ما في محطة بامبوكر يك المركزية الواقعة في وسط الغابات تكتنفها الحشائش والاشجار
 من كل صوب وقد أمضينا اليومين الاولين في مباشرة حاجاتنا الخصوصية على
 انفراد دون تأدية عمل مصلي

وعند فجر اليوم الثالث أتى المنبه وأيقظنا وقتنا في الحال الى المحطة فأخبرنا الناظر أن ناسفر بالقطار الذي كان على أهبة السفر للتمرين على الطريق والعمل وسلم لكل منا نسخة من اللائحة فما كان منا إلا أن ركبنا مع الكومساري بالسبنسه وتحرك القطار وأخذنا نتفرج على الطريق التي أعجبتنا لكونها كلها أشجاراً وحشائش ملتفة وما لبثنا قليلاً حتى شعرنا بانقباض ، ذلك لاننا كلما مددنا البصر لا نرى على مداه إلا آكاماً وواداً تغطيها الاشجار والحشائش المتراكمة بعضها بهيئة تخيف الانسان بمجرد النظر اليها وبعد مضي اكثر من ساعة ونصف وقفنا على أول محطة وإذا هي بناء صغير (من الخشب والزنك) وبها ناظر وخادمه فقلنا يا لله من هذه الوحدة في مثل هذه الغابة المقفرة حيث لا أنيس لذلك العامل سوى الضواري والجوارح وأي فرق بين الحيازة هنا ومنفى سيبيريا

وبعد أن عاد القطار الى كرم وفرم أخذنا نستعلم من الكومساري (واسمه هندرسن) عن طول هذا الخط ومتى يكون وصولنا الى المحطة المركزية الاخرى التي هي آخر حدود قسمنا فعلمنا ان طول الخط نحو مائتين وثمانين ميلاً وهو ينقسم الى ثلاثة أقسام أولاً من بايرا الى بامبوكريك التي هي محطة قيامنا وثانياً من هذه الى مانديجس التي هي نقطة وصولنا وثالثاً من هذه الى أمطالي ، أما وصولنا الى محطتنا الانتباهية فيكون قبل الغروب فنبيت هناك ونعود منها في الغد ونصل بامبوكريك قبل المساء . عند ذلك علا وجوهنا الاصفرار وبدأت علينا علامات الكدر اذ كما لا يخفى اتنا قمنا على عجل من بامبوكريك ونحن نزعم اننا نعود اليها في نفس اليوم وعلى ذلك لم نحمل معنا زاداً ولا غطاءً نتقي به شرّ برد الليل فلما علم الكومساري بذلك دعانا عند الغذاء للاشتراك معه ولعلمنا ان ما معه هو على قدر حاجته في الطريق امتنعنا بحجة الشبع والسلام . وكان القطار يخترق تلك الغابات

فتارة يعلو على قمم الآكام وأخرى يهوي بنا الى اعماق الوهاد ثم ينساب في المنحنيات يمنة ويسرة انسياب الافعوان حتى قبل الغروب وصلنا الى مانديجس وقد أعيانا التعب والجوع

علم القارىء ان الطريق مقفرة جداً وانها عبارة عن غابات وأحراش يكاد لا يكون بها شبر واحد من الارض خلواً من الحشائش والاشجار خلاف الجزء الممتد عليه الخط الحديدي كما انها ليست بسهولة بل هي مجموع تلال وجبال ووهاد وليس هذا كل الذي أريد ان أقوله انما أذكر أيضاً اننا منذ قيامنا من بامبوكر يك لوصولنا الى مانديجس بعد مسافة نحو احدى عشرة ساعة لم يقع نظرنا على آدميين سوى عمال المحطات والقطارات التي كانت تتقابل معنا في الطريق وقليل من العبيد التابعين لأعمال وعمال السكة وبخلاف ذلك فان المحطات التي مررنا عليها لاتزيد عن ثمانية ، أربعة بكل منها ناظر والاربعة الاخرى ليس بها أحد من العمال ، والاربع محطات هذه الحالية ليست متوالية بل محطة بها عمال والتالية ليس بها وهكذا . وهذا من باب الاقتصاد في العمال

ولما كنت من عمال السكة الحديد المصرية سابقاً أرى من الواجب عليّ أن أبين فائدة تلك المحطات الحالية من العمال وكيفية ما يكون بها فأقول ، ان الغرض منها مقابلة القطارات الطالعة والنازلة بها عند اللزوم ويتفق ان يتقابل بواحدة منها أربعة أو خمسة قطارات طالعة مع مثلها نازلة (أقول هذا وأشعر ان أغلب عمال السكة الحديد المصرية يستغربون وربما يضحكون عند القول بأن ثمانية قطارات أو عشرة تتقابل ببعضها بمحطة ليس بها عامل واحد حتى ولا مفتاحي) على ان الامر بسيط جداً ولتقريبه للتصوّر أضرب مثلاً لذلك :

ان محطتي بولاق الدكرور والحوامدية بكل منهما عمال ومحطة الجيزة بينهما

وليس بها عمال فاذا تراءى لناظري تينك المحطتين لزوم مقابلة قطاراتهما بالجيزة يتبادلان الاشارات التلغرافية فاذا اتفقا مع بعضها يقوم مثلاً القطار الاول من بولاق بأمر سفرية الى الجيزة ويخزن بها وهكذا القطار الثاني خلفه والثالث الى الاخير الذي يعطى الى كومساريه أوامر سفرية بقدر عدد القطارات النازلة من الحوامدية حتى بوصوله الى الجيزة يسلم لكل قطار أمر سفرية الاول فالاول والعمل نفسه الذي عمله ناظر بولاق يعمل ناظر الحوامدية مع القطارات القائمة من محطته وعلى ذلك تقابل القطارات الطالعة من بولاق مع النازلة من الحوامدية بمحطة الجيزة وهناك يكون الكومسارية مسؤولين عن تحويل المفاتيح وتخزين القطارات وسلامتها والطريقة وان كانت في غاية البساطة الا ان كل كومساري يلزمه دقة الالتفات والنشاط خصوصاً اذا كانت مخازن الجيزة ضيقة اذ تكون القطارات عند مقابلتها مع بعضها واقفة على فدو السكك والمفاتيح والخط الطوالي ورب مفكر يقول لماذا لا تكون هذه الطريقة في مصلحة السكة الحديد المصرية حتى يتوفر كثير من عمالها ولكن عفواً كيف يكون ذلك ومحطة الجيزة أو خلافها لم تفتح الا لنقل الركاب والبضائع فلا بد من وجود عمال بها لصرف التذاكر والتخليص على البضائع وغير ذلك أما سكة حديد بايرا فهي نوع آخر لانها على مدى امتداد خطها لا تنقل ركاباً أو بضائع من وإلى المحطات المتوسطة الا من بايرا لامطالي وبالعكس لانها ممتدة بين جبال وغابات معمورة بالعبيد الممج فقط وهذا فضلاً عن ان تلك الطريقة التي شرحتها كثيراً ما يتسبب عنها تأخير كبير للقطارات فهي لا تفيد بالكلية في سكة حديد منتظمة تجري عليها قطارات اكسبريس وركاب وبضائع بدرجة عظيمة كالسكة الحديد المصرية

ولما نزلنا من القطار دوّنا حسب ارشاد كومساريننا اسماءنا بدفتر مخصوص

وتاريخ وساعة الوصول وغرة القطار وبأننا انتهينا من الوردية وامام أسمائنا غرة
الادوة التي سنيت بها حتى عند الازوم يطلبنا الناظر أو المنبه من أودتنا دون
أن يتساءل عنا فيقلق راحة غيرنا أما درجة عمران محطة مانديجس فأقل من
بامبوكر يك نوعاً

وما أتت الساعة السابعة مساءً إلا وكنا في الكاتين فتعشنا مع زملائنا
الكثيرين ثم ابتعنا بعض ما كولات لليوم التالي وبعد التمشي قليلاً قصدنا أودتنا
الحالية الخاوية فتمدد كل منا على سرير العاري عن كل شيء وعند نصف الليل
اشتد البرد والصقيع حتى اننا لم نستطع النوم أو التمدد فجلسنا القرفصاء ونحن نتأفف
من ذلك البرد القارس المهلك وقد كدنا ان نبكي مثل الصغار لفرط ما نقاسيه لولا
ان وجود اثنين مع بعضهما مشتركين في الالم مما يشجع النفس على احتمال الشدائد
وعند السحر سافرنا ووصلنا بامبوكر يك قبل الغروب ولما كنا تعلمنا ما يجب
على المستخدم أن يحمله معه عند السفر أخذنا نهياً ما يلزم أن يكون مع كل عامل
في السفر فكل هكذا : صندوق صغير به الما كولات مثل قطعة خبز وعلب
محفوظات من لحم وبسلة ومربة ولبن وشاي وسكر وملح وفلفل وزجاجة للماء وأدوات
الاكل كالشوكة والسكين والمعلقة ومفتاح للعلب وقدر وعدة شاي وصحنين
وأدوات التدخين وأغلب الادوات من الصاج المطلي حتى نخمل النقل ثم ربطة
فراش وهذا الحمل بخلاف الادوات المصلحية التي هي فانوس كبير يوضع خلف القطار
وفانوس اشارة اليد واشارتان خضراء وحمران والاوراق والمكاتبات والطرود التي من
المحطات الى بعضها وهذه لم يكن لها كيس أو صندوق لوضعها به ومن تكرار
اتلافها من حريقها بالنار وبللها بالامطار كما سيرد أعطت الشركة فيما بعد صندوقاً
كبيراً لكل كومساري لا يقوى على حمله نفر واحد خصوصاً اذا كان مشحوناً

وكل ما ذكر هو ما يحمله الكومساري معه عند قيامه بالقطار وأرى من الضروري أن أصف بعض الشيء قبل أن آتي على ذكر قياي عاملاً بأحد القطارات حتى يتصور القارئ متاعب العمل وعظم المسؤولية التي على العامل لما كان الخط ممتداً على مرتفعات وانخفاضات ومنحنيات فالوابور لا يقدر أن يجر وراءه أكثر من خمس عربات مشحونة أو ثمانية فارغة وإذا كان هذا كل القطار فلا يقال إذن بضرورة وجود سببه خلف القطار لاقامة الكومساري بها دون فائدة أخرى (حسب الأصول في السكك الحديدية) لاسيما وأن أغلب العربات بها فرامل للرباط عند الاقتضاء وإنما يرعى أن القطار لا يكون كله من العربات الصاج (الحزنة المقفولة) لأنه إذا كان كذلك فلا يكون محل الجلوس الكومساري بل لابد من وجود عربة مكشوفة بكل قطر سواء كانت بدائر أو سطح وهذه تكون مشحونة فخماً أو أخشاباً أو صناديق أو قضبان حديد أو ما شا كل ذلك وعليها يتربع الكومساري وامامه متاعه وأدواته وغيرها. وليس وقود الوابورات من الفحم حسب المعلوم لأنه يتكلف مصاريف طائلة لتوصيله لتلك الجهات إنما هو من خشب أشجار هذه الغابات الذي يقطعه المتعهدون قطعاً مستطيلة منتظمة ويوردونه للشركة (وهذا العمل قد ربح منه كثيرون ربحاً هائلاً) وعند ابتداء توليع الوابور أو سقوط نفسه يوضع قليل من الفحم مع الخشب وهذه الأخشاب مقطوعة ومرصوفة في جملة نقط على حافة الطريق حتى إذا لزم منها الوابور وقف في وسط المسافة وأخذ كفايته فلخفة ثقل الخشب النوعي عن الفحم خصوصاً بعد اشتعاله تطاير أجزاؤه من قوة ضرب البخار العادم فتقذف المدخنة منه شيئاً كثيراً على ما وراءها وليس وراءها سوى عربات البضائع والكومساري كما قدمنا وبسبب المنحنيات الحادة لا يكتفي بقطر العربات ببعضها بالسلاسل بل خوفاً

من خروجها عن الشريط عند تغيير اتجاه حركتها عند المنحني يوضع خطاف من حديد بين تصادمي العربتين (المربة لها تصادم واحد في كل طرف) وبما ان هذا الخطاف تقالي فيشبك في كل تصادم بمسار مخصوص له وبذا تكون العربات مرتبطة ببعضها رابطاً يأمن به الكومساري المسؤول عن هذه العملية من سقوطها كما وانه يلزمه ملاحظة وجود شحم بعلب محاور العجلات (كراسي الدناجل) خوفاً من حصول حرارة نتيجة الاحتكاك من المسير

وايضاً على ذلك العامل المسكين أن يباشر ربط وحلّ القرملة شيئاً فشيئاً من آن الى آخر لتثبت العجلات على الخط ولزيادة الامن من عدم خروجها . كل ذلك غير واجبات أخرى ربما وردت فيما بعد ضمناً في أقوال الآتية

ففي غروب اليوم السادس من وجودنا بيا مبوكريك بينما كنت أتمشى مع زميلي قبل أوان العشاء طلبني ناظر المحطة وأخبرني بالاستعداد للسفر بعد عشرة دقائق بقطار مخصوص بسواحين قادمين من بايرا لم يكن في الحسبان قيامه هذه الليلة ، فوالله ما كنت أدري ماذا أعمل في تلك اللحظة أحضر أمتعتي التي هي زادي الثقيل وفراشي وأدواتي المصلحية أم ألغيت للقطار والاجراءات التي يجب علي عملها به فما كان من زميلي إلا أنه أسرع وأحضر أمتعتي وأخذت في مباشرة تثبيت مسامير القطاير والكشف على كراسي الشحم وتوليع فانوس مؤخرة القطار ثم ارتبكت في وضعه اذ لا محل له بالمرّة وأخيراً لم أجد سوى ربطه بتصادم السبسسه (التي كانت بالقطار لحسن حظي) وبعدئذ تحولت للناظر لأتلقى منه التعليمات فعند ذلك أمرني بتوليع فوانيس العربات فصعدت فوق سطحها بعد عناء شديد لعدم خبرتي بمثل هذا التسلق ثم صرت أجرب كيف يوقد الفانوس حتى أزف الوقت . وخوفاً من القول بعدم معرفتي ايقاد الفوانيس احتججت بان الهواء شديد واني كلما أوقدت عوداً من

الكبريت ينطفيء فما كان من الناظر إلا أن علا على سطح العربات وأراني كيف توقد تلك الفوانيس فشكرته ، وتحرك القطار يطوي القفار

وبعد قليل ظهر القمر وأرسل أشعته الساطعة على تلك الأرجاء السائد عليها السكون وليس سكون الليل فقط بل سكون الوحشة حيث لا يسمع فيها سوى حفيف الأشجار ونقيق الضفادع بل حيث تصدع الآذان زعجرة ملك الغابة ونباح الثمر وعواء ابن آوى وخوار بقر الوحش وقبач الخلوف البري نعم حيث ترى الغزلان أسراباً والحير الوحشية قطعاناً فتفاجئها أسد الغابة وضواربها وتبدد شملها وتطاردها وتمزق ما يقع فيها بين مخالبها كل ممزق هناك يفتك القوي بالضعيف ولا شرائع تنهأه وتعاقبه ولا رادع يردعه ، أجل فبذا قضت الطبيعة ولا مرداً لقضائها أحسنت أم أسأت

وبعد نحو ساعة وقف القطار عند صهرج حتى يأخذ مياهاً فتزل بعض القوم للوقوف قليلاً والتمتع بضوء القمر ثم عادوا لمقاعدهم وتحرك القطار فبينما أنا أطل من النافذة ويدي فانوس الإشارة الموجه للسائق اذ لمحت كلباً يمدو وراء القطار وعرفت أنه كلب المسافرين فقلت في نفسي يا لله لولم يكن هذا الكلب عزيزاً لدى صاحبه لما أحضره معه من بلاده وكلفه ما كلفه من المصاريف والتعب وإذا كان الأمر كذلك فهو سيشتكوني وربما أطرده ضحية هذا الحيوان وبعد أن عازمت على إيقاف القطار اخفى الكلب عن بصري فعلمت أنه لم يستطع اللحاق بالقطار وافكرت اني اذا أوقفت القطار فلا يكلف أحدٌ سواي بالبحث عنده وربما أذهب فريسةً للوحوش فأكون كالباحث عن حنفيه بظلفه فلم يسعني إلا العدول عن فكري هذه وقد كنت أنتظر أنه لدى وصولنا لاوّل محطة تعرض قضية الكلب على الناظر وطبعاً يصيبني من جراء حرقه صاحبه على فراقه بعض السباب والشتائم لان غطرسة الانجليز

عرفتها كل الامم الاخرى ولكن والله الحمد لم يصدق قألي اذ أن القوم ناموا ورجعوا
ان كلهم نائم تحت أقدامهم ونحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وصل القطار الى
آخر مركزي فسلمت مامعي لناظر المحطة وذهبت لغرفة النوم وتخلصت من
وسواس ذلك المفقود لا أرجعه الله

وبعد مضي يومين علمت ان الشركة مصرحة بأن يكون لكل عامل خادم
يصحبه أنى توجه لنقل أمتعته من مكان لآخر وهي تصرف له غذاءه الذي هو
عبارة عن مكيايل صغير من الارز أما أجرته الشهرية فتكون على سيده فلم أتأخر
عن انتقاء خادم. ومن النادر ان يمكث الخادم عند مخدومه أكثر من شهر خصوصاً
اذا كان يخدم كوميدياً لصعوبة عمله وذهابه وإيابه في حر النهار وبرد الليل وتحت
النيران الحامية المتساقطة من مدخنة القاطرة أو الامطار الغزيرة

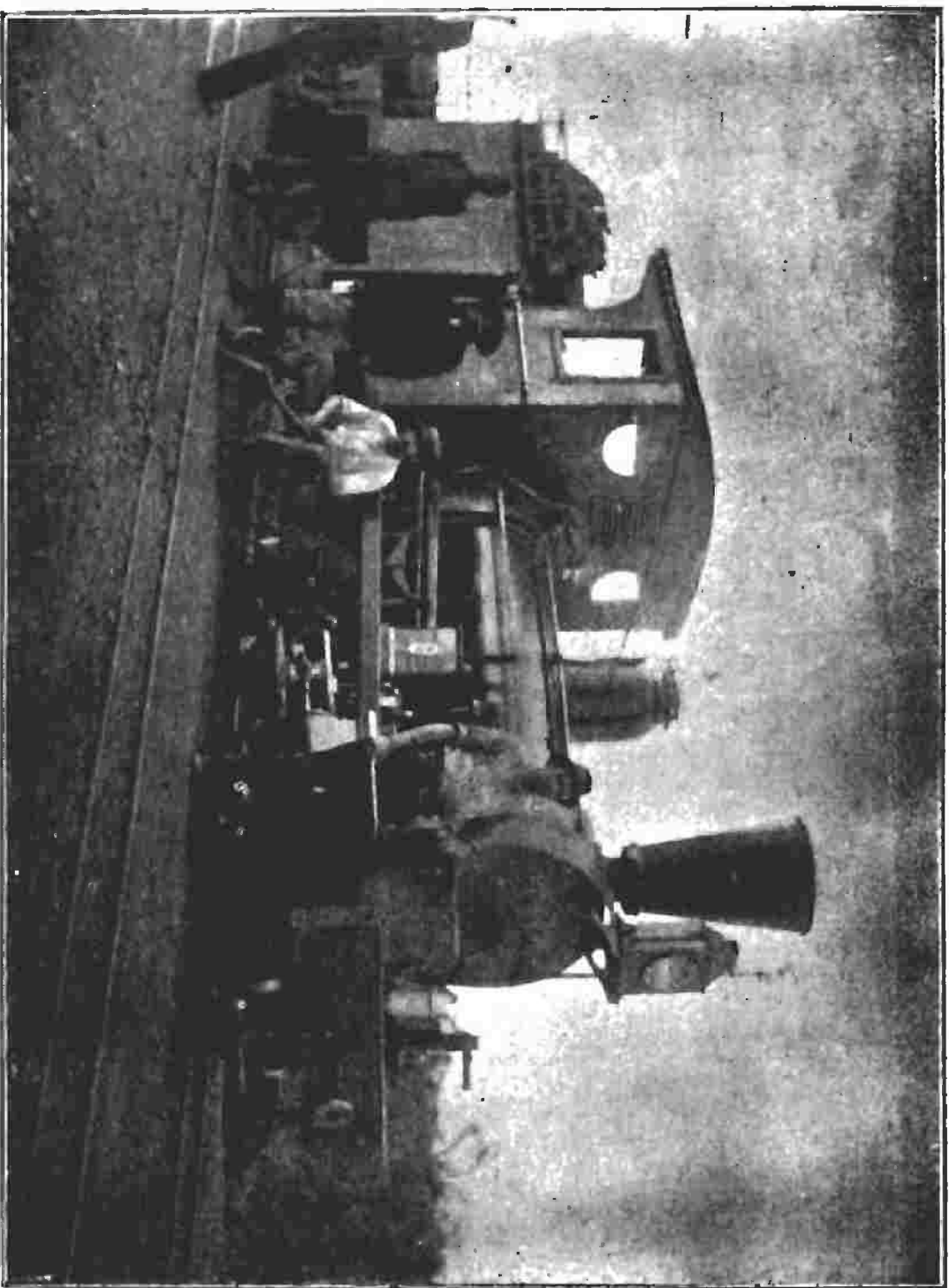
ان من يريد ان يصف مشاق ذلك العمل المخوف بالاطار والمخاوف
يلزم له وقت طويل حتى يملاً مجلدات ضخمة اذا طامها أحد عدها من باب
المغالاة أو قال انها أقوال ملفقة ولكن لما كان ما لا يدرك كله لا يترك جله أتى
على ذكر ما يساعد على تصوير بعض الشيء

فتمت مرة في نصف الليل بقطار مخصوص يقل مدير عموم الشركة وكان القطار
مركباً على هذا الترتيب : القاطرة وثلاث عربات بدائر مشحونة صناديق تحتوي
على آلات ميكانيكية وأخشاب دقيقة مشغولة ثم عربة صالون المدير وكان محل جلوسي
على قمة العربة الثالثة من القطار بمعنى انه كان بيني وبين القاطرة عربتان ولا حاجة
بي الى التنويه عن تنفيذي اللائحة والتعليمات بكل دقة واليقظ أكثر من اللازم .
عادة كل عامل امام رئيسه . كما ولعلم الانسان ان الحر شديد جداً في النهار في تلك
الجهات حتى اننا من شدة الحرارة كنا نتظلل بأغصان تقطعها من الاشجار وأما في

الليل فالبرد يكون قارساً ولا ثقل درجنه عن برد ليالي شهري ديسمبر وينابر في القطر المصري . وبما أني جالس في ذلك الوقت على سطح العرببة المكشوفة كان البرد يتضاعف من مسير القطار حتى أني كنتُ أشعر أن بشرتي وجهي انسحبت وأنني جدع وأُذنيَّ صلّتا وأنا ملي بترت . ومن جهةٍ أخرى فاني كنتُ أنحاشي تلك النيران المتساقطة عليّ بدون انقطاع حتى كنتُ كمن يوخز من امام وخلف ويمين ويسار وفوق وتحت وهو أمرٌ مؤلم محزن مبكٍ وان كان مضحكاً شكلاً . وقد كان خادمي الذي لا يقلّ عمره عن خمس وعشرين سنة متمدداً بجانبني مثقلاً بالنوم إلا أنه لم يكن هادئ البال ساكن الجاش لانه كان في عراك مستمر مع ذينك العدوين العنيدين اللذين كانا متبعين خطة الهجوم بينما هو يتبع خطة الدفاع وقد انجلت الواقعة بغيره فقد أتى أمراً لا يذكر من شدة البرد واحتترقت مأزرته من فعل النيران

وحوالي الساعة العاشرة صباحاً قبل وصول القطار الى المحطة الانتهاية يضع دقات لحث دخاناً متصاعداً من العرببة التي وراء القاطرة تماماً فأشرت للسائق بالوقوف قرب الصهرج الذي عند مدخل المحطة ولكنه لم يرضخ لشارتي ولما وقف القطار في حلقة المحطة فصأت تلك العرببة المتقدة فيها النار وأسرعت لأخبار ناظر المحطة فما كان منه إلا أن صرخ على بعض العبيد وصاروا يحولون ماءً ونحن نشتغل باطفاء النار وبعد أن انتهينا من تلك العملية المشؤومة أخبرني معاون المحطة بأن لا أذكر عنها شيئاً في تقريري اليومي إذ أن فيها ما يمس السائق لعدم رضوخه لشارتي وربما تسبب عن ذلك طرده من الشركة ، لانهم يعتبرون ان اشارات الكومساري أو ناظر المحطة للسائق هي كأوامر الضابط لعساكره في معمة القتال بمعنى انه يلزم فيها الانقياد الاعمى وهو نظام حسن يقلل الخطر كثيراً في السكك الحديدية وعلى ذلك تكتمت الخبر وظننت أن تلك الحادثة طويت في سجل الكتمان

على انه بعد بضع أيام دعاني ناظر بامبوريك الذي يدمر أمورنا وبعد أن أدخلني الى مكتبه ووصلد الباب ناولني مكاتبة وقال لي أن أقرأها واذ هو تقرير مقدم من ناظر مانديجس تلك المحطة الانتهاية يشنع فيه عن اهمالي تشنيعاً ليس من ورائه سوى طردي ان لم يكن ايداعي السجن وهو مرسل بجواب من مأمور الادارة للناظر يشير فيه اليه بدقة تحقيق المادة وان رأى ثبوت التهمة علي فيخليني من عملي فلما أتيت على منتهى تلك المكاتبة المزعجة لم أستطع أن أحجز نفسي عن البكاء وأخيراً قصصت له حقيقة الامر وذكرت له أن المعاون خدعني خيفة الخاق الضرر بالسائق ولما لم يجد ناظر مانديجس مناصاً من اشهار المسألة أخذ يهول ويشنع فيّ حتى يسبل الغطاء على الحقيقة خوفاً من وقوع المسؤولية على ابن جنسه ثم كتبت كل أقوالي هذه وقد رأى منها الناظر والمأمور ما درأ عني شبهة التهمة والسلام،



المؤلف يؤدي عمله في سكة حديد نابرا

الفصل السابع

الاضطراب وموجودات الغابة والاستغناء

ختمتُ الفصل السابق وكأن الصعوبات تنحصر في الحر الشديد نهاراً والبرد القارس ليلاً ومقذوفات مدخنة القاطرة والمسؤولية العظمى عن أدنى شيء في العمل على أنه فائتي أن أذكر شيئاً عن الامطار الهائلة التي كثيراً ما كانت تجرف أجزاء من السكة فتتعطل القطارات في وسط الطريق ويخوض العامل في تيارات المياه المنحدرة قمتُ مرة من بامبو كريك وريثا علوت سطح العربة التي ناسبت أن تكون محل جلوسي وتحركت القطار أخذت الامطار تهطل قليلاً قليلاً وبعد برهة تدفقت كالسيل المنهر حتى خلتُ أن ميازيب السماء انفتحت ولم أجد ما يقيني منها لان القطار كان مركباً من عربات مكشوفة مشحونة بقضبان حديد وأنا جالس على قمة واحدة منها وقد كنتُ أحاول في مبداء الامر أن أستتر منها بنشر سترتي عليّ ولكني لما رأيت أن ذلك لا يجدي نفعاً تربعتُ وقلت (أنا الفريق فماخوفي من البلل) حتى ثقلت عليّ ملابسي وضقتُ ذرعاً وكنتُ ألعن ذلك اليوم الذي وُلدتُ فيه وتلك الليلة السوداء التي حبل بي فيها وقد صار صندوق زادي وربطة فراشي كمصارة وقد أصبحتُ وأضحتُ وظلت الامطار تندفق على نواصينا حتى قبل وصولنا للمحطة الانتهاية بقليل . ولما انقشعت السحب وظهرت الشمس تجردتُ من ملابسي إلا ما سترني منها وبعد أن عصرتها نشرتها تحت الشمس وكذلك فعلت بأمعتي ومراسلات وطرود مصليوية اذ كان أصحابها بعض الشيء مع انها كانت داخل صندوق وبعد أن وصلتُ الى منتهى سفري وأردت النوم لاني كنتُ منهوك القوى

رأيتُ أن فراشي وملايبي لا تزال مبللة فلم أستطع النوم ولذلك عرجت على الكاتين خلافاً لعادتي وشهيتي في هذا الاغتراب وعمدت الى تناول بعض أقداح من الجن اقتداءً بغيري

وأيضاً كم من مرّة لانبج اماننا شيئاً من الخبز ومع ذلك فلم يكن هذا بالامر الصعب اذ كنا نغناض عنه بالارز المطبوخ الا أن الانكى من ذلك اتفاق عدم وجود ماء للشرب أحياناً حتى اننا كنا نتسلى عنه وتصبّر بالشاي غير المحلى المزوج باللبن المحفوظ وكنا نحضر الماء الساخن من رجل القاطرة والذي كان يعزي الانسان هو انه كان يرى ان البلاء شامل لجميع الذين معه أما الاحطار فكثيرة يطول شرحها ولكنني اكتفي بذكر بعض ما أحقق بي منها



ذات مرّة عند الساعة الثامنة مساءً كنتُ مسافراً وجالساً على عربة سطح مشحونة بقضبان حديدية وكان امامها عربتان من صاج (خزن مقفولة) فينما كان القطار صاعداً على مرتفع عظيم لمحت العربتين اللتين امامي تميّلان يميناً ويسرة ثم مالنا ميلاً كبيراً وبدون تروّ طرحتُ بنفسي من أعلا القطر وسقطت على ميل الجسر وصرت أهوي الى الخضيض بين الحشائش والاعشاب ومن خوفي من الضواري أجهدت نفسي في الصمود من تلك الوهدة وكان السائق والعطشحي يزعمان أني هلكْتُ لا محالة فلما رأيتُني أخذاً يفحصاني فلم يجدوا بي سوى بعض خدوش خفيفة في يديّ وساقّي من تعرّض بعض الاعشاب لي في طريقي ومحاولتي التشبث بها عند دحرجتي وصعودي وبعد أن فحصنا حالة القطار علمنا أن احدي العربتين اللتين خلف القاطرة تطوّح جسمها (الصندوق) حتى خرج عن دائرة مركز ثقله فسقطت على

أحد جانبيها وسجبت معها الاخرى وبذا خرجت القاطرة عن الخط . أما العربية التي كنتُ بها فلكونها واطئة لم تسقط مع غيرها بل خرجت عن الخط ومن قوة الحركة انحلت سلاسل أربطة القضبان المشحونة وهذه انتفضت شذر مذر، فلولم أطرح بنفسى أرضاً لكانت مزقني تمزيقاً . ثم أخذنا في عمل الاجراءات اللازمة في مثل هذه الاحوال التي كان من مقتضاها بصفتي كومساري القطار أن أتوجه راجلاً الى أقرب محطة لا بلاغ الخبر . فليتصور القارئ حالتي في ذلك الوقت سائراً في الظلام ومعى خادمي وخادم السائق في وسط تلك الغابات ونحن نلتفت ذات اليمين وذات الشمال خوفاً ورعباً من الوحوش الكاسرة



ومرة أخرى بينما كنا مسافرين ليلاً اذ تعطل قطاراً أمامنا في منتصف الطريق فتعطل قطارنا خلفه ولما كان قطارنا ثالث قادماً خلفنا قضت عليّ الاحوال بأن أحمي قطاري منه فأعطيتُ فانوس الاشارة لخادمي لكي يذهب بعيداً ويوقف القطار القادم . ولما ذهب تذكرتُ أننا في منحدر عظيم وربما أن ذلك العبد لا يحسن الاشارة بالفانوس فينحدر ذلك القطار على قطارنا الواقف ويحطمان بعضها فتخوفت شرّ العاقبة وفي الحال أخذتُ فانوس مؤخر القطار لمباشرة العمل بنفسى . فما ابتعدتُ نحو مائتين وخمسين ياردة تقريباً وهي نصف المسافة القانونية لحماية القطارات حتى سمعت ما ارتعدتُ منه فرائصي وانحلت منه مفاصلي . نعم سمعت زحجرة وحش كاسر قريب مني تخفني عنه الاشجار والحشائش ، فطرحتُ الفانوس لاكون خفيفاً وصرتُ أقفز قفزاً لم أعهده في نفسي من قبل عائداً للقطار صارخاً بأعلى صوتي ، ولولم تكن المسافة قريبة وطريقي منحدر تسهل لي سرعة العدو لكان افترسني ذلك الوحش بلا محالة وكنت الآن جزءاً من ثرى تلك الارض . أما

الخادم فكما علمت منه أنه لما سمع ذلك الصوت المرعب تسلق شجرة حتى اقترب منه القطار المنتظر



ولست هذه المرة الوحيدة التي كنت فيها عرضة لخطر الوحوش بل مرتان أخريتان أحدهما كانت بمحطة بامبوكر يك وأنا بالمرحاض الواقع خلف المحطة اذ كنت تلك الليلة مصاباً باسهال اضطررتي للخروج مراراً عند منتصف الليل ولقد نجوت لقرب عشش العبيد من ذلك المرحاض والنيران الكثيرة التي يوقدونها لارهاب الوحوش



أما المرة الثالثة فقد اتفق أن قاطرة قطاري تعطلت بالمحطة التالية لبامبوكر يك فلبثنا هناك ريثما ترسل قاطرة أخرى لنقل قطاري وقضت الحالة أني أبيت بتلك المحطة . فلما خيم الظلام أردت قضاء حاجة ولما خفت الوصول الى المحل المعين لانه كان واقفاً بين الاشجار فضلت أن أبتعد قليلاً خلف القطار الواقف وأقضي تلك الحاجة على جانب الطريق . فلما قضيت وطري وانتصبت سمعت وطأ اقدام على الحشائش بين الاشجار . فلت بأذني وحملت بنظري حتى أتأكد الحقيقة وكانت اذ ذاك قدماي متمفزين للوثوب واذ قفز وحش لجهتي ، ولحسن الحظ لم يدركني اذ كأنه لما رأي علي وشك الفرار منه وثب علي على مسافة أبعد من وثبت . عند ذلك صرخت وخطوت تلك المسافة القصيرة في بضع خطوات ، وكان الناظر واقفاً مع عمال القاطرة يجتهدون في اصلاح الخلل ، فلما سمعوا صراخي تقدموا لناحيتي بأنوارهم التي بأيديهم ، فقال لي الناظر : ألم تعلم الاحتراس بعد ؟ فلماذا لم يكن معك قنديل ؟ فجأوبته اني قريب جداً من القطار ، ثم دعاني الى

تناول قدح من الوسكي . أما هذا الناظر فاسمه مك لين وكان عسكرياً في فرقة الهايلندرس وحضر الحرب العالمية ولبث بمصر نحو ثلاثة شهور . وقد كانت في هذه المحطة في ذات ليلة حادثتي عربية مكشوفة مشحونة وبها أربعة اكياس أرز ، فلما تفقدها الناظر في الصباح رأينا أن بها كيسين فقط فاستغربنا الامر ، ثم لمحا أثر جري وأقدام حيوان على الارض فتبعناه حتى وجدنا كيساً ممزقة اطرافه وبعد بحث طويل عثرنا على الثاني وسط الغابة ، فقال لي الناظر ضاحكاً : يظهر أن الوحش أراد أن يعتاض عنك بالارز ، أو ربما أتى ذلك من حرقة على ضياع فريسته منه أمس اذ أننا لم نسمع أن الوحش تأكل أرزاً

على انني لست دون سواي تعرضت مرّات لمثل هذا الخطر بل ان كل زملائي كذلك الا انه لما كنا دواماً على حذر ليلاً ونهاراً كانت العواقب سليمة وكثيرون من الناس من يصطادون تلك الوحوش فإن لم يكن من باب الرحمة والشفقة على الادميين فطعماً في أظافرها وجلودها التي تباع في الخارج بأثمان عالية



كنا مرّة منتظرين باحدى المحطات قطارات من الجهة المقابلة واذا بخادم الناظر ومعه عبد آخر يجريان نمرًا مخططاً (فهداً) وقد أخبرنا الخادم انه بعد أن أطلق عليه عياراً أصابه ولكن لم يقتله تحوّل النمر للهجوم عليه ليمزقه ولكن العبد لم يمهله بل أطلق عليه عياراً آخر أصاب مقتله

وغاية ما يقال أن الوحوش المكسرة في تلك الغابات كثيرة جداً يتحدث بها الراحل والغادي وكثيراً ما نظرناها تهرب أمام أعيننا من قرعة القطار

أما الوحوش والحيوانات التي تكثر في تلك الجهات فهي الاسد والنمر والفهد وابن آوى وحمار الوحش المخطط وجاموس البر (البوفالو) وبقرة والغزال على أنواعه

والخوف والارنب وحيوانات أخرى صغيرة وقد أكلنا من كل لحوم ما يؤكل منها ولا أنسى أننا صنعنا مرة شوربة من عظام البوفالو فكانت غاية في الدسم واللذة



ومرة نظرت قطعاً من حمير الوحش لا يقل في العدد عن عشرين بين كبير وصغير ، وقد كانت كلها مقتربة من بعضها على جانب الطريق حتى لما مر القطار بجانبها ذعرت وقصت هاربة وسط الحشائش

ويوجد من الطيور الدجاج البري السمين ونوع من القمري وعصفور بججم السمانة وهذا يصدح طويلاً بنغمة متظمة جداً ثم طير كبير في حجم العرنوق وله منقار أحمر طويل وكيس عريض في رقبته وهو يلتهم الجراد بالعشرات اذ أنه يحط على أطراف أعالي الاشجار وعند مرور الجراد امامه يفغر فاه ويخلق عليه فيدخله بدون عناء والطير ما عليه الا ايداعه في ذلك الكيس الذي على ما أظن لا يمتلئ بأقل من ألف جرادة

ثم يوجد الجراد (وقانا الله شره) وهو كثير بدرجة لا يتصورها العقل حتى يخال اني أبالغ في ما اكتبه عنه . مرة مر علينا فحجب عنا أشعة الشمس فقلنا ونعم المظلة ، ومرة أخرى اعترض قطارنا في طريقه وكان متراكماً على بعضه على الارض حتى ان القطار لكثرة ما كان يدوسه منه كان يتزحلق لاتنا كنا صاعدين على مرتفع وعلى ما أتذكر أن السائق أوقف القطار ثلاث مرات وأخيراً لم يجد أحسن من ازدياد البخار والسرعة لمقاومة تلك الجيوش الجرارة ولقد كنا نسترجع وجوهنا بلباسنا لتتقي شر اصطدامه بنا وغاية ما أقول أن القطار كان كسفينة تتأرجح بين أمواج محيط من جراد وبعد ما خرجنا من خطوط الاعداء وتخلصنا من تلك المعركة الشعواء أوقف السائق القطار وأخذ في تنظيف آلات القاطرة الخارجية التي

كانت تغطت بجثث القتلى وتلوّثت بدماهم وحمدنا الله على أن النصر كان حليفنا وتوجد أيضاً حشرة تشبه ما نسميه بأبي طبق وهذه تطير في الظلام الحالك وتبهر حولها نوراً لامعاً فصفورياً ما أبدعه وما أبهجه، وكثير من أنواع الفراش (أبو دقيق) وهي ذات ألوان مختلفة بديعة جداً ومنها ما إذا فرد جناحيه كان كاتساع كف الانسان، وكثيرون من الاورباويين مغرمون بعمل مجموعات منها حتى وان أحد نظار المحطات كان جامعاً منها شيئاً كثيراً معلقاً على جدران مكتبه مرشوقاً بدبابيس في الحائط ولم كان هذا المنظر أبهج من تعليق الصور والرسومات بكثير

أما الدواب السامة فلم أنظر منها أو أسمع عنها شيئاً إلا أن هناك نوعاً من الهوام أصغر من حجم البرغوث ويسمى (مناكين) وهو يعلق بالارض الحافية ولا يعلم به الانسان إلا بعد أيام حيث يشعر بأكلان شديد والعبيد دون سواهم لهم مهارة في استئصاله وان لم يستأصل عاجلاً نزع عنه نأكل واشتد الألم وآل الامر الى نوع أشبه بفنغرينا بطيئة السير لا يحلّ اشكالها الا بتر القدم، ولقد رأيت كثيراً من العبيد مصابة أقدامهم بهذا الداء المضال وهم لا يرجون الشفاء منه وترام صابرين على هذه البلية العظمى وفاتهم أن الصبر ليس بمحمود في كل الامور أما الآن وقد انتهت من ذكر الصعوبات والاضطرابات ثم مخلوقات تلك الجهات التي جرّني الى ذكرها سيرة الوحوش الضارية فاني أذكر أمراً كان من بواعث الاستغناء وهو أن أغلب العمال الذين معنا من الطبقة الثالثة فهم من رعاى بریطانيا وسفلة المستعمرات نزحوا عن ديارهم في طلب كفاف العيش ولذا كانت أخلاقهم وطباعهم عبارة عن مجموع رذائل لا يحلو لهم سوى السباب والالفاظ البذيئة وإتيان كل الدنياى المقنونة ومع كل ذلك فهم جهلة متفطرسون يحرقون

كل آدمي غير بريطاني خصوصاً اذا كان مصرياً^(١) لاعتقادهم أن كل أبناء أفريقيا الاصليين همج متبر برون حتى أنهم كانوا يتناولون ويسموننا انا وزميلي بلفظة سود (عبيد)

والذي زادهم فينا كرهاً ومقتاً هو أني وزميلي والحق يقال كنا نوذي أعمالنا أحسن منهم لاسيما وكانت خطتنا الصدق والدقة في تنفيذ اللائحة والاوامر ولذلك كنا مراراً عديدة سبياً في مجازاة كثيرين منهم حتى أنهم كانوا يتواطون مع أغلب نظار المحطات على ما يجلب علينا الضرر ولكن كل ما كانوا يأتونه من هذا القبيل كان عبثاً وما ذلك الا لعدل مأمور الادارة وحسن طوية ناظرنا الاكبر اللذين كانا يميلان لنا كل الميل لما تأكدها فينا من اقتدارنا على عملنا وسيرنا الحميد واثباتنا الاتقياد الاعمى للرؤساء (وشهادتي التي يدي للآن أكبر دليل على ذلك) حتى اذا شئت أنفسنا تكرار الشكوى من سوء معاملتهم لنا استعفى زميلي وسافر الى بايرا

أما من جهتي فاني لبثت بعده بضعة أيام حتى في يوم ٣١ أكتوبر سنة ٩٩ تناول علي بالسباب شاب بويري من زملائنا وأخيراً أراد أن يجرني للمضاربة ولكنني بذات كل ما في وسعي لتجنب تلك الملاكمة التي سأكون فيها مغلوباً لا محالة لان ذلك الخصم العنيد طويل القامة عريض الكتفين قوي البنية شديد العضلات . فلما وصلت للمحطة الانتهاية قدمت تقريراً بما حصل من ذلك البويري لذلك الناظر الذي لا أعهد فيه العدل ولا الانصاف من يوم حادثة الحريق السابقة الذكر ولكن هي الاصول قضت علي بأن أشكو خصمي لخصم

(١) عن ذلك كانت رسالتي المدرجة بجريدة المؤيد بعددها الصادر في ٢٢

أكتوبر سنة ١٨٩٩ نمرة ٢٨٩١ تحت عنوان (لماذا أنا ممقوت)

وفي يوم ٣ منه عدت الى بامبوكريك وأنا أكاد أتميز من الغيظ وبعد أن انتهيت من اعمالى الكتاتية جهزت متاعى وقصدت ناظرنا فأعلمته بأنى راغب فى الاستعفاء والسفر فى هذه الليلة الى بايرا . ولما سألنى عن السبب برقته الممهودة لم أجبه الا بالبكاء . فابتعد عني قليلاً حتى كففت الدمع وأخيراً ذكرت له حكاية البويرى وما كان من ناظر المحطة الانتهاية . فلرقة عواطفه وحسن آدابه أخذ فى ملاطفتى واقناعى بأنه سينظر فى الامر ويأخذ بناصرى من كل من تعدى على . ولكن لما كان امتلاء الحوض وقال قطنى وطفح الكيال صممت على طلبى وتشكرت لناظرنا المسمى ل . ل تومس وفى الحال حررت لي جواباً باخلائى وأبدى فيه شديد الاسف على الاسباب التى حملتنى على الاستعفاء . وسافرت الى بايرا فى تلك الليلة فلما وصلتها وجدت زميلى هناك ولم يكن قدم نفسه بعد لمكتب الشركة . وفى اليوم الثانى توجهنا لمركز الشركة ولما مثلنا بين يدي مأمور الادارة أخذنا فى سرد البواعث التى حملتنا على الاستعفاء . فمن لطفه قال انه ينقلنا الى

قسم بايرا ليكون مركزنا بالمينا فلم تقبل وأخيراً أمر بصرف باقي ما نستحقه باخلاصنا من الشركة

وبعد مضي أيام رأيت أن حركة الاعمال واقفة نظراً للحرب الانجليزية البويرية التي استعرت نارها ودارت رحاها من نحو شهر على قرب منا فكثرت في الرحيل الى بلاد أخرى ثم خطر ببالي السفر الى زنجبار مع أني لا أعرف عنها شيئاً البتة . ولما صممتُ على ذلك تصميماً نهائياً ذهبتُ الى ديوان الشركة وطلبتُ شهادتي ومصاريف اسفري الى جهة أخرى فأخذتُ الشهادة . أما المصاريف فعارض فيها المدير العمومي بعلّة اني تركتُ الاشغال من تلقاء نفسي وفضلاً عن ذلك فاني لم أتم ستة شهور في خدمة الشركة . فأجابه مأمور الادارة انه يعلم كل ذلك ولكنه يودّ اجابة طلبي بنوع استثنائي لحسن سلوكي ونشاطي في العمل . وبناء عليه صُرف لي ستة جنيهات ثم مضيت للاستعداد للسفر وقد كانت مدة اقامتي ببيرا من بعد استعفائي اثنين وعشرين يوماً لم أباشر في اثنائها عملاً ما

الفصل الثامن

السفر الى زنجبار ومشاهدها

في ظهر يوم الاثنين الموافق ٢٧ نوفمبر سنة ٩٩ ركبْتُ الباخرة الالمانية «قيصر» ووجهتني زنجبار ولما كانت الدرجة الثالثة التي أنا نازل بها مزدحمة جداً وليس لي محل بها لم أجد ما يقيني شرَّ النوم على السطح سوى أن أضع يدي في جيبِي وناولتُ رئيسَ مائدة الأكل مائولتهُ وبعد برهة عيَّن لي محلاً بين زملائهِ فقلتُ حقاً ان الدرهم يفعل ما لا يستطيع فعله بدونه وفي غروب يوم الاربعاء أي بعد يومين وصلنا مينا موزامبيق ولبثنا بها زهاء الليل وسحابة اليوم الثاني ، وفي غروبه أبحرنا منها ورثما خرجنا من المينا رأينا البحر هائجاً مائجاً حتى اضطربت القلوب من شدة اضطرابهِ وهلمت النفوس من عظم دويه فلم يكن لنا سوى النوم وفي اليوم الثاني انتصبنا لتناول الغداء واذا بالمائدة تكاد تكون خالية من الآكلين ولو كان طعام الالمانيين كطعام الفرنسيين لفرح الآكلون القليلون لغياب رفاقهم ولكن طعامهم لا يؤكل الا عند الجوع اسد الرمق فهو ينحصر في البطاطس المدقوق والسلطة المسلوقة واللحم المسلخ الذي لا تطاق رائحتهُ ولقد كنتُ أستغنى عن هذه الاطعمة قائماً بالزبدة والمربة والجبن

وفي ضحوة يوم الاحد ٣ ديسمبر رسينا على مينا دار السلام عاصمة المستعمرة الالمانية . وقد كنتُ أود كثيراً أن أشاهد تلك المدينة حباً في اسمها العربي ولكن لما كانت مدة وقوفنا وجيزة جداً لم يصريح القبطان بنزول أحد وعند الساعة الثالثة مساءً أقلعنا منها وفي الساعة السابعة مساءً من ذات اليوم ظهرت لنا أنوارُ كهر بائية ساطعة فعلمنا أننا أمام جزيرة زنجبار وبما أن قوانين تلك المينا تقضي

بعدم دخول المراكب بها بعد الغروب بتنا خارجاً عنها نتراوح هنا وهناك
وفي الساعة السابعة صباحاً (يوم الاثنين ٤ ديسمبر سنة ٩٩) وطأت قدمي
أرض تلك الجزيرة التي اشرح صدري لمراها لانها كانت أعظم مدينة وقع عليها
بصري منذ رحلي عن وطني ثم وقفتُ على البر متحيراً يكتنفي صبية أدلاء وبما
أني كنتُ أحمل على رأسي برنيطة من القش أخذ بعضهم يخاطبني بالتبليانية وآخر
بالبورتنغالية أو الانجليزية ، ولتكا كثرهم علي كتركهم على ذي جنة زجرتهم
بالعريية وعند ذلك ظهر واحد منهم وخاطبني بالعريية فقصدتُ فندقاو بعد أن اغتسلتُ
وغيرت ملابسي استصحبني دليلي للتفرج على المدينة وفي اليوم التالي استأجرت أودة
واشتريت بعض الادوات اللازمة وأقتُ بها ولما رأيتُ أن هناك طرايش تباع
أسرعتُ وابتعتُ واحداً منها وتخلصتُ من البرانيط بعد أن لازمتني ثمانية شهور .



كانت بلاد زنجبار سابقاً عبارة عن جزء عظيم من ساحل أفريقيا واقع شمال
بلاد موزامبيق وجنوب بلاد الصومال وعاصمتها جزيرة زنجبار وكانت تابعة لدولة
البورتغال ثم أغار عليها أمراء عرب بلاد عمان بمراكبهم الشراعية تحمل خيلهم
ورجلهم فاستولوا عليها عنوةً واقتداراً ومن ثم صارت مملكة عريية كبيرة على أنها
مع الاسف لم تلبث قليلاً في حوزتهم حتي احتاطت بها الدول الاورباوية وأخذت
تنهشها نهش الجوارح الجيف فنالت كل منها ما نالته وقد كان الحظ الاوفر منها
للسر الالماني . ثم صارت لتقلص شيئاً فشيئاً حتى أصبحت هذه المملكة عبارة عن
تلك الجزيرة مع ملحقات صغيرة جداً وهي جزيرة ميا وجزر صغيرة من ساحل
أفريقيا الشرقي يشمل مومباسا (وتكتب بمبسة حسب بحث حضرة اللغوي البارع
صاحب العزة احمد بك زكي) الممتد منها خط السكة الحديدية الانجليزية الذي

سيصل قريباً الى أوغاندا وكلها تحت حماية الاسد البريطاني
أما جزيرة زنجبار فهي واقعة على الدرجتين السادسة والسابعة من خط
الاستواء جنوباً فهي في المنطقة الحارة ولما كانت لا تبعد عن أرض قارة أفريقيا
شرقاً بأكثر من خمسة وعشرين ميلاً في المحيط الهندي كانت معدودة من دائرة
تلك القارة ومساحتها ستماية وثلاثين ميلاً مربعاً وبما أنه لم يحصل تعداد قاطنيها
لآن فاستسمح القارئ في الاكتفاء بتقدير الأمم المختلفة التي بها تقديراً نظرياً
يحمل الزيادة والنقصان

ففيها من الاورباويين نحو ثلثماية نفس ما بين بريطانيين وألمانيين وفرنساويين
وايطاليين وغيرهم وأغلبهم مشغولون بالتجارة

ومن الهنود نحو عشرين ألفاً ولذا يخال للانسان أنه في بلد من بلاد الهند
وهم القابضون على زمام التجارة الكبيرة والصغيرة والحرف أيضاً ثم هم من طوائف
وأديان مختلفة، فمنهم اسلام ومن ضمنهم من ينتمون الى طائفة سمو آغا خان الذي لا
يزال على قيد الحياة ويعتقدون فيه العصمة والقدرة على غفران الخطايا ولذلك
يمجدونه وينشدون له أناشيد وأغاني مخصصة به ويميدون له أعياداً أكل بضعة
أسابيع ولو توفي اليوم أحد أفراد عائلة مثلاً وكان في اليوم التالي ميعاد عيد
جناب آغا خان فعائلة المتوفي تكف عن الحزن وينقلب حزنها الى فرح ورقص
وسرور، وجنابه مشهور بالذكاء والمعرفة وهو ذو حول ولول في بلاد الهند وموقر
بين الملوك والامراء خصوصاً لدى دولة بريطانيا العظمى وله أموال عظيمة حتى أنه
يقال أن أغلب المصارف (البنوك) ببلاد الهند دائرة عليها وقد زار أبناء
طائفة في زنجبار من نحو ثلاثة أعوام فقبل رسمياً مقابلة السلاطين وأدبت المآدب
وأولت الولائم وأقيمت الزينات الباهرة في انحاء المدينة اكراماً واجلالاً لسموه

ومنهم البانيان (وكلهم تجار وأصحاب حرف) وهم الوثنيون الذين يحرقون موتاهم وكيفية الحريق أنهم يأخذون المتوفي الى مكان مخصوص منفرد على شاطئ البحر ومعهم كلبٌ وهناك يكشفون الجثة فاذا اقترب الكلب منها (كان على زعمهم) ان ذلك المتوفي صالحاً (ولا أظن أن الكلب يقصر في تأدية هذه المهمة) وبعد أن يطلون الجثة بالمسلي يضعونها على كومة من خشب الوقود ثم يشعلون النار فيها حتى اذا احترقت وصارت رماداً أخذوه وذروه في اليم . والمعلوم أن هذه العادة أحسن صحياً من خلافها ولكن كيف تقوى تلك القلوب البشرية الضعيفة على هذا العمل . اني كنتُ تبعتُ ذات مرةً قوماً حاملين ميتاً الى حيث يتمون تلك العادة الوحشية ولكن ما خطوطُ بضع خطوات الأُ وخانني جلدي فانقلبتُ راجعاً

ومنهم الجاويون الذين من بلاد جاوه وهولاء كلهم مسيحيون متمدنون تماماً كالاورباوين ومنهم عمال البوسطة والمرك وأصحاب حرف ومستخدمون بمحلات التجارة والشركات ولونهم كلون البرابرة المصريين أو أفتح منهم قليلاً أما لون الهنود الاسلام وأغلب البنيان فهو مثل لون المصريين بمعنى أنه يختلف بين أسمر وقحي وخمري

ثم الفارسيون الوثنيون وعددهم يبلغ نحو الالفين وأغلبهم مشتغل بالاعمال الكتابية ومن عاداتهم أنه اذا مرض أحدهم ورأوا أن حالته تنذر بالخطر نقلوه قبل الوفاة الى المقبرة حيث بها محلات مستعدة كاملة الاثاث فاذا شفي عاد الى منزله أما اذا مات فيصلبون جثته ثم يطلقون عليها الطيور الجارحة حيث تنهش فيها ثم تطرح في جب عميق على أن منظر مقبرتهم أنظف وأحسن بكثير من مقابر الاورباوين وغيرهم

ثم الاعراب الذين كانوا أصحاب البلاد ومالكي زمام أراضيها وعددهم يقارب



المهنود وأزياؤهم - صبي هندي وخادمه جالس

الخمسة عشر ألفاً وأصلهم من جنوب شرق بحيث جزيرة العرب وهم كسالى جداً فمنهم من كان يكتفي بما ثمره له أرضه بمرق جبين العبيد ومنهم من كان يشتغل بتجارة الرقيق قبل ابطالها وهم لا يهتمون الا لبطونهم والنفخخة الفارغة الصادرة عن جهل مركب ، ومن عاداتهم أن الرجل يمشي وراءه أربعة أو خمسة عبيد والمرأة يحيط بها نحو عشرين أو ثلاثين من الجوارى ولا بطل تجارة الرقيق قل عدد التوابع بكثير عن قبل ، أما عن حالتهم المالية فهي آخذة في الانحطاط بدرجة عظيمة محسوسة ثم الزوج أهالي البلاد الاصيلون وهم مسلمون يشبهون السودانيين الا أنهم ألين عريكة وأزكى منهم بكثير وقد كانوا أرقاء من بضع سنوات أما الآن فهم أحرار وهو لا أترعّض لتقدير عددهم خوفاً من سقوطي في الخطأ الفاحش .
وهناك نفر قليل من اليابانيين لا يزيد عددهم عن ثلاثين وأغلبهم نساء عموميات بغيات وبعضهنّ مليحات الا أن شرطة عيونهنّ ضيقة جداً وشعورهنّ تفوق شعور كل الام الاخرى سواداً وطولاً ولباسهنّ جميل يشبه القفطان عريض الاكمام وهو من الحرير أو الصوف البديع النقش واللون ، ويتمنطقن عليه بأحزمة حريرية . وصورة المرأة في اليابانيين أحلى منها في الرجل بكثير ويغلب فيهنّ قصر القامة



وتختلف أزياء قاطني زنجبار عن بعضها كثيراً ، وعلى الاجمال فان المسيحيين منهم على اختلاف أجناسهم يتزويون بالزّي الاوربي المعلوم وأغلبه من التيل الابيض نظراً للحرارة . والاعراب يتزويون بالزّي العربي ويحذون نعلاً يعلق سيرها بالبام (أصبع القدم الاكبر) ثم العمامة الضارب لونها للاحمرار . والهنود المسلمون يلبسون أقمصه بسيطة وسراويل (بناطيل) وكلها من البقعة وعلى رؤوسهم الطاقية الهندي

المرزخفة أما نساؤهم فيلبسن أقمصاً طويلة وسراويل واسعة وعلى رؤوسهن واكتافهن ملاء مزكشة وكل لباسهن من الحرير الهندي المختلف الالوان وهو لباس خفيف ناعم جميل فاتن للابصار. وأقبح كل الازياء لباس رجال البنيان فهم مهما كان قدرهم لا يلبسون سوى جاكته أو بالطر ويلفون نصفهم الاسفل بقطعة من الشاش بكيفية قبيحة لا تسترهم تماماً حتى وان الرجل يمشي وشي من فخذيهِ وساقيه عارٍ بالمرّة ويتعممون بعامة كبيرة أو يكتفون بالطاقيّة الهندي. أما الزوج فالذكور منهم يلبسون الجلابيب والطاقيّة البيضاء والاناث يتزرن بآزر ملونة ورؤوسهن حاسرة والمعجات المتبخرات منهن يتعمن بقطعة من الصوف الغالي الثمن ومن قبيح عاداتهن أنهن يثقبن ثقوباً في حافة دائر آذانهن وينظمن فيها قطعاً من ورق مستدير ملون وهن يعتبرن هذا التشويه من باب الحلية



أما مجمل ما يقال عن المدينة فإن بها مباني عظيمة شاهقة كباني الدرجة الوسطى في القطر المصري إلا أن شوارعها ضيقة جداً وطرقها رديئة للغاية ومع هذا الضيق ترى الجانبين مزدحمين بالحوانيت والباعة، لأن أغلب المباني هناك يكون الدور الاسفل منها حانوتاً والأعلى مسكناً وليس بها سوى شارع واحد مناسب يتبدى من البحر وينتهي بالمزارع خارج المدينة وهذا يقطنه الاجانب، وحالة البلدة العمومية نظيفة لآن الطرق تكس مرتين في اليوم

وهذه الجزيرة تعد بمثابة مركز لتجارة شرق وأواسط أفريقيا وأغلب البضائع ترد من بلاد الهند ويدر اليها العنبر والجلود والعاج والبيغاء من أفريقيا والآبنوس من مدغسكر والاصداغ من جزائر سيتشل

والحوالات الاميرية والاهلية العمومية التي بها هي ديوانا الجرك والمينا ومكتبا



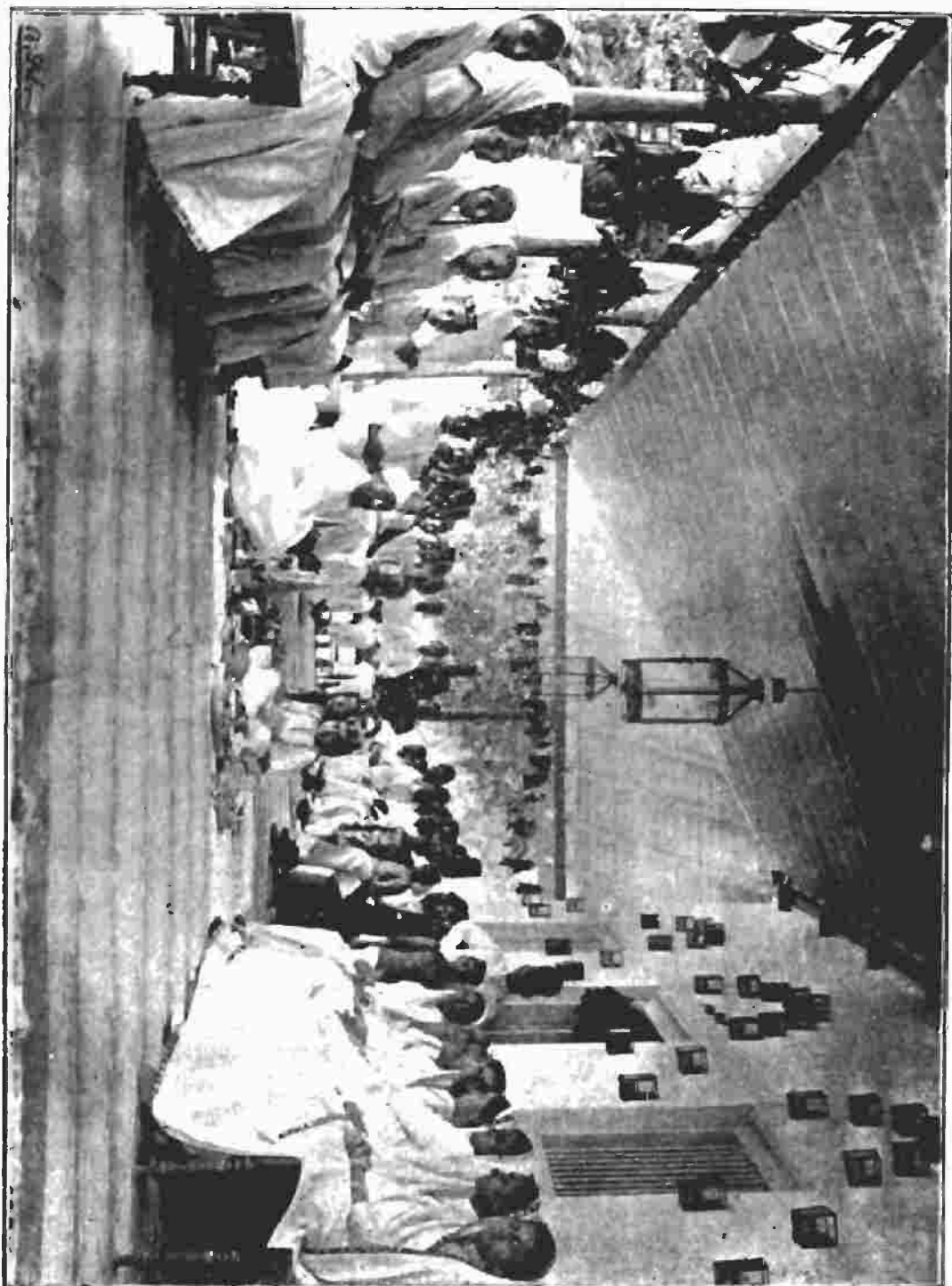
الزنجيات المعجبات

البريد والتلغراف الانجليزي وثلاث محاكم شرعية سائرة على محور الخطط والخطط
 اعدم معرفة قضاتها شيئاً من العلوم والمعارف بل من الشريعة الفراء ومحكمة
 القنصلية البريطانية وهذه تنظر في الدعاوى المهمة العظيمة والجنح والجنايات :
 ودستورها أحكام قانون بلاد الهند ثم ديوان الوزارة وبه خزينة الحكومة وقلم
 تحرير الرقيق ثم مستشفى مناسب جداً وسجنان للاهالي والاجانب وديوان البوليس
 وحديقة صغيرة فاخرة للعموم تسمى حديقة فيكتوريا وبها أسد داخل قفص من
 حديد وتصدح في هذه الحديقة موسيقى الحكومة مرتين في الاسبوع ثم السراي
 السلطانية العظيمة وملحقاتها الكبيرة المخصصة للعائلة السلطانية ومطبعة كبيرة للحكومة
 تطبع بالافرنجية والعربية وتطبع بها جريدة أسبوعية أخبارية تجارية اسمها « غازيت
 زنجبار وشرق أفريقيا » وجريدة زراعية شهرية اسمها « شامبا » تطبع بالانجليزية
 والعربية الا أن عربيتها لا تفهم بالمرّة نظراً لاختلال معناها وركاكة مبناها لانها
 مكتوبة تقريباً بلغة بلاد عرب عمان الدارجة ومع ذلك فهي غير مفهومة لدى ذات
 الاعراب لتلطخ صفحاتها بالالفاظ الانجليزية والسواحلية ثم مكتب للبوسطة
 الفرنسية وأربعة نوادي رياضية وأندية للانجليز والالمان والهنود والفارسيين
 وثلاث صيدليات ومدرستان احدهما للرسلين والغرض منها ديني محض والاخرى
 للهنود وهذه أشبه بكتاب صغير للاطفال وكنيستان للانجيليين والكاثوليك ونحو
 ثمانية جوامع ومحلات لوكلاء وقناصل الدول ومكاتب بعض شركات البواخر
 والتجارة ومطبعة هندية أهلية تصدر بها صحيفة أخبارية هندية وأربعة فنادق للغرباء
 ومن المار الفاضح الشنيع أن كل هذه الجزيرة (بل هذه الدولة) ليس بها
 مدرسة أميرية أو أهلية يتعلم فيها أبناء البلاد

وأما لغة البلاد فتسمى السواحلية وتكاد تكون لغة التفاهم المنتشرة بين جميع القاطنين ، فالبريطاني يخاطب بها العربي وكذلك الهندي والفارسي بل بها يخاطب العربي مع عربي آخر والهندي مع هندي آخر ، ولذا كان من الضروري جداً لكل نزير بتلك البلاد أن يتعلم تلك اللغة الهمجية حتى ينسنى له قضاء حاجاته ، وبهذه اللغة ألفاظ كثيرة من لغات موزامبيق والعربية والانجليزية . وللتفكهة أذكر أعدادها من واحد الى عشرة مشيراً الى الالفاظ السواحلية بوضعها بين قوسين وهي : (موجا) واحد (بيلي) اثنين (تاتو) ثلاثة (إنا) أربعة (تانو) خمسة (سينه) ستة (سباه) سبعة (ناني) ثمانية (تساه) تسعة (كومي) عشرة ، فترى ستة وسبعة وتسعة عربية والاخيرتان ينقصهما افصاح العين . ومن ألفاظها : (إنجو) تعال (نندازا كو) اذهب (كولا) كل (إيمكاتي) خبز (كونوا) اشرب (ماجي) ماء (إنديو) نعم (سيو) لا (ماسباه الخيري بانا) صباح الخير يا سيدي (كوهيري بيبي) بالسلامة يا سيدي (وهذه يقال عند الانصراف) ولفظة بيبي يقال للأنثى خادمة كانت أوسيدة وهم . وتقدير المرسلون في هذه اللغة حتى أنهم طبعوا قاموساً بالانجليزية والسواحلية وبالعكس ، وبما أنها مجرد لفظ بمعنى أنها ليست ذات حروف فتكتب عند الاورباويين بالحروف الافرنجية وعند الاعراب بالحروف العربية وقد كتبوا الانجيل بها وهو مطبوع بالحروف الافرنجية والعربية بالالفاظ السواحلي وكثيراً ما يكون الوعظ في الكنائس والخطب في بعض الاحتمالات بتلك اللغة الهمجية



وميناء هذه الجزيرة من اكبر مواني شرق أفريقيا وقلما تخلو من المراكب التجارية وقد أقيم أخيراً أمام السراي السلطانية على الشاطئ فناء عظيم يبلغ ارتفاعه



الغارسيون الوثنيون في ناديم

مائة قدم وينار بالكهرباء وقوة نوره ثلاثون ألف شمعة وقد ورد بغازيت زنجبار أنه أكبر فتار في موافي العالم أجمع ، وبهذه المينا مركب حربي انجليزي اسمه (باروسا) والغرض الاصلي منه مراقبة منع تجارة الرقيق ثم ثلاث بواخر صغيرة للحكومة المحلية وهي (نيانزا) وهي قاصرة على تأدية مظاهر الاحتفالات البحرية والرسمة وأخذ واعطاء الاشارات ما بين المينا والمراكب الداخلة و (باراوا) و (كلوه) وهاتان تجاريتان تتحران ما بين زنجبار وساحل أفريقيا وجزائر كومورو وسيتشل والقبودانية ومساعدوم من الهنود والسواحليين ورئيسهم انجليزي



وأرض الجزيرة تروى بالامطار وهي مخصبة للغاية وأهم محصولاتها القرنفل الذي هو منبع ثروة الاهالي والحكومة التي لها منه ربع المحصول ، وشجره كشجر التفاح ثم السمس والشته وجوز الهند وشجر الاخير كالنخل تماماً وبها شيء كثير من الفواكه منها الموز ومنه نوع يبلغ طول الواحدة منه نحو ثلثي ذراع والقشطة والانااز والجواقة والمانجو (المايبه) التي منها نوع تزن الواحدة منه رطلاً والبرقال والليمون وقصب السكر وأصناف أخرى كثيرة لا تعرف في انقطر المصري منها نوع اسمه (دوريان) وهو أشبه بهيئة الانااز واكبر منه حجماً ورائحته كريهة جداً لا تطاق الا أن مذاقه لذيد كذاق القشطة ويعتبر عندهم أعظم الفواكه وأحسنها . ومن أزهارها الورد والياسمين . ومن خضاراتها الباميا والقرع والباذنجان والطماطم والخس والخيار والفجل والنعنع والكرفس والملوخيا . ويزرع هناك نوع من الجذور أشبه بالبطاطا وهو لغذاء العبيد ويسمى (موهوجو) وقد جربوا هناك أخيراً زراعة الفانيليا فنجحت كل التجاح . ويوجد بهذه الجزيرة البقر والخيول والحمر والمعزى والغنم الواردة من أفريقيا وبلاد العرب والدجاج والبط والحمام ومن الاسف

ان الاعراب هناك يسمون الحمار « مصري »



والغذاء هناك يمكن حصره في ثلاث طبقات : الاولى للاور باوپين ، وغذاؤهم معلوم للجميع ، والثانية لباقي الامم على اختلاف طبقاتهم (ما عدا الزوج الفقراء) وغذاؤهم لا يتعدى أصنافاً معلومة وهي الارز المطبوخ بعصارة جوز الهند وطعمه لذيذ جداً (ولذا يجب علي أن أصف كيفية طبخه بعد) والارز المطبوخ مع السمك ثم الموز الاخضر المطبوخ بمرق اللحم أو الدجاج . وعلى ذلك فهم لا يأكلون الخبز الا نادراً لانهم يعتاضون عنه بالارز وفي الصباح يتناولون قليلاً من الشاي ، والثالثة للزوج الفقراء وغذاؤهم من ذلك الصنف المسمى (موهوجو) وهو يذق ويطبخ فيكون أشبه بالثريد (العصيدة) والارز رخيص جداً وهو وارد من بلاد رانجون بالهند . وأما المياه فهي من عيون طبيعية بعيدة عن المدينة وتصل اليها في مواسير مركب عليها حنفيات والاستقاء منها مجانياً وهي نقية صحية

والآن أفى بوعدى في ايضاح طريقة طبخ الارز بجوز الهند وهي :
يؤتى بنصف جوزة ثم تبشر بالآلة مخصوصة . والفرض أنها تكون كالجبنة الرومي التي توضع على الكرونة . ويوضع المبشور في وعاء وعليه قدر من الماء (مناسب لقدرة الارز) ويعمل فيه عملية عصر العدس في وسط طبخه بمعنى أنه يعصر مراراً حتى يصير الماء بلون اللبن ثم يستغنى عن ثقل الجوز . وبعد غسيل الارز كالعتاد يطبخ بذلك الماء الابيض وعليه قليل من الملح فيكون طعمه ورائحته أحسن من الارز المنفلل ومن يجرب يشهد بصدق القول



أما الطقس فملي قسمين : شتاء وهو من نوفمبر الى ابريل وتهطل فيه الامطار

الجزيرة ويكون فيه الهواء لطيفاً بارداً نوعاً يقارب طقس أيام الربيع بالقطر المصري . وحرّ وهو من مايو الى اكتوبر والحرارة فيه لا تزيد عن درجة حرارة القطر المصري في شهر يوليو وأغسطس وربما كانت أخف مع أن البلد واقعة في المنطقة الحارة وما ذلك الا لان الجزيرة مكسوّة بالخضرة والاشجار الباسقة الوارفة الظلال وهذا فضلاً عن أنها محاطة بالماء من كل جهة



ومن الامراض الشائعة فيها الادره (القليطة) وداء الفيل (ورم الساق والقدم) ونوع من الجرب البسيط وهذا مضمون الشفاء في مدة وجيزة بخلاف البليتين الاوليتين اللتين لا تصيبان الا الاهالي المولودين هناك . والنزيل لا يخشى الا الحمى ، ومع ذلك فهي ليست من الحيات القتالة خصوصاً اذا راعى الاعتدال في المأكل والمشرب والشروط الصحية الاخرى



والعملة المتداولة هناك الجنيه الانجليزي وأجزاؤه ، والروبية ونصفها وربعا وقيمتها بالعملة المصرية ستة قروش صاغ ونصف لان الجنيه يساوي خمسة عشر روبية . ثم قطعة نحاسية تشبه العشرة الخردة القديمة وتسمى (بيسه) وقيمتها أقل من المليم بشيء قليل وهذه منها ما هو منقوش عليه لفظة « زنجبار » أو « سلطان يرغش بن سعيد بن سلطان حفظه الله » ومنقوش على هذه وتلك من الجهة الاخرى رسم ميزان ورقم السنة التي ضربت فيها . ويوجد محلان لاستبدال النقود الذهبية والفضية مهما كان نوعها بعملة البلاد الا أنها تصرف بقيمة أقل من قيمتها الاصلية

ولقد يجمل بي أن اكتفي الآن بما ذكرته عن زنجبار وأهاليها وما بها مؤجلاً

بقية الكلام ان كان هناك بقية لفرصة أخرى والآن أعود الى شرح حالي هناك



أقمت أياماً في تلك الاودة مفكراً ولا عمل لي سوى أنني كنت أحياناً أشغل نفسي باحضار ما أريده من الطعام وتهيئته بنفسي ثم أتمشى بعد العصر ولقد كنت تعرفت في بحر هذه الايام بتاجر كبير من مصر وأصله من حلب الشام يدعى الشيخ عبد الرحمن جمالي ورجل يمني الجنس زنجباري المسقط وأصله من سلالة سلاطين جزائر كومورو يدعى السيد منصب بن علي وهذا خطيب وإمام المسجد الشريف الاكبر . ومن غريب ما يحكى عنه أنه أعطي موهبة التصوير مع أنه لم يدخل مدرسة ولم يحضر على معلم سوى أنه تعلم مبادئ الشريعة في إحدى الزوايا وأخذ يطالع من تلقاء نفسه اللغة العربية وأصول الشريعة حتى صار على معرفة مناسبة ثم رأى في نفسه ميلاً قوياً الى رسم كل ما يراه ويستحسنه بقلم من رصاص على قرطاس حتى اذا اشتهر أمره وبلغ مسامع أحد سلاطين زنجبار السالفين أراد أن يمتحنه فسلمه رسم مركب حربي ليأتي بمثله وأحضر له الالوان وبعض الآلات التي لم يكن للسيد منصب أقل دراية بالعمل بها لعدم سبق مسكها ببنائه قبل هذه المرة ومع ذلك لم يستصعب العمل بل أخذ يجرب هذا القلم وذاك اللون وأخيراً اشتغل حتى رسم ذلك المركب الحربي الدقيق ولم يكتف بذلك بل رسم الكتابة التي في أسفله ثم قدمه الى السلطان الذي حين رآه اندهش من عظم الاتقان حتى أنه قال لقد يصعب على الانسان أن يميز الرسمين (الرسم المنقول من المنقول عنه) ومن ثم أعاد عليه نعمه وأمر له بالآلات كاملة للرسم وعندئذ ذاع صيت الرجل وخصوصاً بين الاوربا و بين الذين عزفوا بقدره حتى انهم لا يزالون يكلفونه بنقل بعض الرسوم ، وكثيراً ما يعمل مناظر ورسومات مثل تكبير

الفوتوغراف أو زخرفة أوراق المعايدات أو الملاحق أو مناظر خلوية وما أشبه
وبيعها للأورباوين بثمن عالٍ — فله درّه

وتعرف بي أيضاً شابٌ من المولدين بزنجبار واسمه محمد ابراهيم وهذا وجد
فيه ميل شديد الى تعلم الموسيقى فالحق عاملاً بسيطاً في فرقة الموسيقى السلطانية
ولما أخذ في ممارسة عمله تشبث بكل آلات النفخ فأتقنها ولم يكنف بذلك بل
تطاوت يده الى ذوات الاوتار ففاق كل أقرانه حتى صار الآن رئيساً لجوقتي
الموسيقى والاوتار

فصكتُ أمضي أغلب أوقاتي مع الثلاثة المشار اليهم ، ولما كنتُ درستُ
أحوال البلد رأيتُ أن أقدم نفسي الى قنصل جنرال بريطانيا (هو السير ارثر
هاردينج الذي كان سابقاً سكرتيراً للورد كرومر بمصر) حتى يرى لي عملاً أتحصل
منه على أسباب العيش فما كان من جنابه إلا أن كتب لي جواباً للجنرال الانجليزي
الموظف في حكومة زنجبار بصفة وزير عظيم وكانت النتيجة بعد التردد الى الاخير
عدم اجابة الطلب . وبما أني رأيت من السير ارثر عند مقابلتي له المرة الاولى
لطفاً ورقة وميلاً لمساعدتي عدتُ اليه ، وبعد أخذ وردٍ أشار عليّ بالعود الى
بلادتي بما أن نطاق الاشغال في هذه الجهات ضيقٌ جداً ، فأجبتُهُ اذا كان
الامر كذلك ففضل بارسالي الى مستعمرة اوغاندا . واذا كان قد علم مني سبق
استخدامي في سكة حديد بايرا قال : اذا كنت لم تتحمل معاملة زملائك في بايرا
ومتاعب العمل فهل تزعم أنك تتحمل الوجود بأوغاندا بين أولئك الاقوام العسكريين
والتخاوف الكبيرة خصوصاً وأن المسافة من هنا الى هناك يقطعها المسافر على القدم
في ثلاثة شهور فرأيت أن لا مشاحة في قوله ثم أردف كلامه قائلاً : وأرى أن
من الصواب الآن ان تعود الى وطنك ، ومن جهة مصاريف السفر فاني مستعد

لخبرة اللورد كرومر عنك تلغرافياً لارسالك على حساب الحكومة المصرية
هنا وعلا وجهي الاصفرار واعتري فؤادي الاضطراب ولم أستطع أن أفوه
بينت شفة برهة من الزمن ومع أنه لمح عليّ ذلك إلا أنه أعاد هذا القول . فقلت له
اسمح لي يا جناب المعتمد أن أقول اني أفضل الموت جوعاً عن قبول هذا الامر .
فقال : اذن ماذا تعمل ؟ أجبت اني رجل غير مقعد ولا ضرير ويمكنني أن أتدبر في
أمرى ثم انصرفت من أمامه مضطرباً من قوله الذي ساءني من حيث قصد الاحسان
ثم خطر ببالي ان اكتب لحاكم مستعمرة شرق أفريقيا الالمانية بمدينة دار
السلام فكتبت ما كتبت ووضعت بمكتب البريد

وبعد بضعة أيام علمت أن قد تعين حاكم جديد لتلك المستعمرة ولم يصل
لمركزه بعد ، ولذا فقدت أمل المجاوبة على كتابي وكان هذا في أواخر شهر يناير
ولما رأيت أن ما بيدي لا يزيد عن أربعة جنيهات أخذت أفكر في ما
عساه أن يكون بعد نفاد هذا المبلغ وما وراء ذلك المستقبل المكفهر جوّه فأعياني
الفكر ولم يكن لي مناص من ملازمة الفراش

وفي صبيحة يوم الاحد الموافق ٤ فبراير بينا كنت بغرفتي سمعت من يقرع
بابي ويناديني واذا هو رئيس الموسيقى ومعه شاب آخر حسن البزة وعلى عينيه
عوينات ذات أسلاك ذهبية فرحبت بهما وأجلستهما ثم عرفت أن ذلك الشاب
هو ناظر الخامة السلطانية . وبعد أن حادثني قليلاً أخبرني أن جلالة السلطان
يريد مثولي بين يديه في عتمة اليوم . فأجبت بأن لي الشرف الكلي والسرور
العظيم لمثولي لدى الاعتبار الشريفة ولكن هل من باعث على ذلك ؟ فقال انه
لا يعلم السبب وما هو الا رسول من قبل مولاه

ولما تحفز للقيام مع رفيقه سأله عن مراسم المقابلة فأعلمني بها وانصرف

وبعد انصرفها اشتدت علي عواصف الفكر عن سبب طلبي هذا وعما اذا كان
عن ضرر أو سلام . ولما كنت كتبتُ قبلاً عن زنجبار بجريدة مصر بعدد ١١٨٦
بتاريخ ٥ يناير سنة ١٩٠٠ وكان قد ورد لي ذلك العدد أسرعتُ باحضاره وتلوته
ثانية بكل تمن خشية أن يكون زلّ بي القلم الى ذكر شيء لم يرتح سموه من
ذكره فلم أجد شيئاً من هذا القبيل بل اني أمدح السلطان كثيراً في تلك الرسالة ،
وما اطمأن خاطري قليلاً الا وعادتنني الوسوس وقد خطر ببالني أن سموه ربما
كان ممن لا يحبون وجود مثلي متحكماً بالجراند في بلاده ، وعلى ذلك فان
سموه سبضطني الى الخروج من بلاده والرحيل عنها ، ولكن لو كان الامر
كذلك لما احتاج الحال الى مثولي بين يديه بل كان يكفي أن تصدر أوامره لمن
ينفذها عليّ

وعند العصر تهيأت للمقابلة وقصدت السرايى السلطانية وأرسلت بطاقتي
مع أحد الحجاب الى ناظر الخاصة فنزل في الحال وأخذ بيدي وصعد بي ، فلما
رأيت الحرس والحجاب الكثيرين واقفين على باب قاعة الاستقبال اعتراني شيء
من الاضطراب كما هي العادة عند مقابلة عظيم ، ثم دخلت واذا بجالاته جالس
في صدر المحل فأديتُ اشارات الخضوع والاحترام دون أن أنبس بكلمة ووقفتُ
مبتعداً عن الكرسي الملوكي بنحو خمسة أمتار فأشار عليّ بالجلوس مبتسماً وعند
جلوسي قال « اقترُب » مشيراً بيمنه الى المكان الذي اكون فيه فاقتربت ثم قال
(كيف أحوال البلاد) فأجبتُ بخير يا مولاي أدام الله جلالكم ، وبعد نحو أربع
دقائق كان في أثناها يتفرس في أشار الى أحد رجاله وبعد أن أمره بما أمر قال
إلي سموه (استصحب هذا الرجل) فأديتُ علامات الخضوع والطاعة وثققت
(بانتظام) وتبعني الرجل وجلست أمام مكتبة وهي مع مكاتب أربعة عمال

آخرين بذات قاعة الاستقبال العمومية التي بها سموه ثم أخذ الرجل يسألني عن معارفي وأخبراً ناولني قرطاساً وقلماً وقال لي أن اكتب سطراً مما يحطريالي دون أن اتكلف التروّي وانتقاء الالفاظ. فخططت هكذا - لقد قرأت عيني وانشرح صدري بمثولي لدى الاعتاب الشريفة ومشاهدة سنا طلعة جلالة مولاي الالفهم والسلطان المعظم حفظه الله وأدام سلطنته آمين -

فلما قرأ ما كتبت تبسم قائلاً : ان المصريين أذكيا للغاية فصمتت وقالت في نفسي : وأين هذا الذكاء الذي رآه مني . أما هو فقام وقدم القرطاس الى صاحب السموة ولما تلاه رأيتُهُ يتبسم . وبعد ذلك عاد الرجل (وهو الباشكاتب) وأخبرني ان أعود في الغد عند الساعة كذا قبل الظهر

وفي الميعاد المحدد حضرت الى السراي وبعد أن قابلني ناظر الخاصة أجلسني امام قاعة مكتبة السلطان وبعد قليل خرج منها الجنرال الانجليزي (الوزير الاكبر) وأخذ يستفهم مني عن كل أحوالي وأخيراً ناولني قلم رصاص وقرطاساً وأمرني أن اكتب ملخص حكايتي من عهد خروجي من مصر للآن . فكتبت وبعد أن اطلع جنابه عليها قال انه سترجمها على مسامع السلطان وبعد قليل عاد وأمرني أن احضر لديه في ديوانه بعد الظهر حتى يخبرني مدير الجرك في اللغة الفرنسية وعلى ذلك توجهت لديوانه في الميعاد وكان لديه ذلك المدير فأخذني هذا الى مكتبه وبعد أن اخبرني حرر جواباً بالنتيجة لجناب الوزير وسلمه لي فلما قابلته سلمته المكتوب وقال لي أن احضر باكراً فترددت لديوانه في اليوم الثاني ولمشغولته لم أتمكن من مقابلته . وفي غد ذلك اليوم بينا أتمشى في الطريق رأيي أحد سعاة ديوان الوزير وأخبرني أن لي تذكرة من جنابه مودعة عند ذلك التاجر صاحبي لعدم معرفة أحد بمحل اقامتي فذهبت اليه واستلمت التذكرة واذ مضمونها اني سأكون ضمن

معية جلالة السلطان فتوجهت للسراي وقدمتها لناظر الخاصة وبعد أن قابل سموه عاد وأخبرني أن أحضر في الغد لمباشرة عملي ثم نبه على جميع العساكر والحجاب بأن يسمحوا بدخولي السراي وصعودي الى فوق دون استئذان من أحدهم . وقد عرّفتني مواعيد العمل واذ هي من الساعة التاسعة الى العاشرة صباحاً ومن الرابعة الى الخامسة مساءً بمعنى أن مدة العمل يومياً ساعتان فقط — فما أحسن هذا العمل وما أطفه

الفصل التاسع

زنجبار

« عيد الفطر ، الاستخدام ، السلطان ، السراي السلطانية »

كان عيد الفطر المبارك بعد أن مضى عليّ بزنجبار شهران ، وبما أن الحكومة تحفل بهذا العيد رسمياً رأيت أن آتي على وصفه منقولاً عن رسالتي لجريدة المؤيد المدرجة بالعدد الصادر في ٢٥ ذي القعدة الموافق ٢٦ مارث سنة ١٩٠٠ نمرة ٣٠٢٣ مع تعديل طفيف لعدم تذكر ترتيب ذلك الاحتفال تماماً

كان آخر رمضان المعظم هنا يوم الخميس فمادت شمس ذلك اليوم نحو الغيب الأواحتشد ألوف من الناس في ميدان السراي السلطانية حيث كانت المساكرمصطفة صفهافاً والاعلام السلطانية الحمراء تخفق على سارياتها الممتدة على شاطئ البحر حتى اذا غربت الشمس وانهار النهار دوت المدافع وأخذت فصيلة من المساكر في اطلاق البنادق على التوالي ثم صدحت الموسيقى ، كل ذلك كان ايذاناً بختام شهر الصوم المبارك وكان المنظر مهيباً جداً والفرح شاملاً الجميع وكانت السراي مزينة زينة باهرة تتألق من داخلها وحواليها الانوار الكهربائية والمصابيح الوضائة المنسقة على أشكال هندسية بديعة ، وتقابلها في البحر زينات ثلاث بواخر تبهر الابصار بديع أشكال أنوارها

وفي سحر يوم الجمعة أطلق مدفع الصباح ثم صدحت الموسيقى بالسلام السلطاني اجلالاً لسموه واكراماً للعيد السعيد وبعد أن أدى جناب الامير خالد سنة العيد

في المسجد الشريف نيابة عن سمو شقيقه السلطان أطلقت المدافع من المينا والشاطئ وبعد ذلك ابتدأت التشريرة العرية وكان السلطان يقابل الوفود فيسطون الكف الدعاء والتبريك وبعد تمام تلك الرسوم مدت الموائد لأولئك الالوف المحتشدة فأكلوا ما اشتتهه أنفسهم وعند خروجهم كانوا يتعطرون بروائح الورد والياسمين الزكية ثم دعوا للحضرة الفخيمة بالعرز وطول البقاء.

ولما انسلخ النهار وأقبل الليل بديجوره أشرقت أنوار زينة السراي ضعف ما كانت عليه في الليلة الماضية ثم أخذت الموسيقى تصدح بألحانها المصرية فتشجي القلوب رقة وتستهوِي النفوس هوى وبعد ذلك تلتها فرقة ذوات الاوتار المطربة ثم الرقص البيني بالسيوف وكانت أطباق الحلوى والكؤوس السكرية المطرية تدور على كل الحاضرين يديرها ندمان عليهم حلل مزركشة تسحر الالباب، وعند منتصف الليل أخذت الالعب النارية دورها فكانت الاسم تصعد في الفضاء كأنها تحاول أن تصيب كبد السماء ثم تنفجر فتقطع نائرة درارها على رؤوس الاشهاد وهكذا انفض الاحتفال على مثل هذا الرواء الجميل

وفي صبيحة السبت جرت تشريرة الاجانب في السراي العامة التي كانت أخذت زخرفها وازينت ودرجها مكسوة بأفخر الطنافس وأثمنها ورجال الحرس الهنود بمزاريقهم منتشرين عن اليمين وعن الشمال ثم أقبل وكلاء وقناصل الدول واحدا فواحدا وكل منهم يصحبه اكابر رعيته ثم قبيدان وضباط مركب حربي ايطالي كان راسيا في المينا، وكانت العساكر مصطفة في ميدان السراي والموسيقى تصدح بنشيد كل دولة عند دخول وخروج وكيلها وانتهت هذه التشريرة على أحسن حال وأتم نظام وفي أصيل ذلك اليوم الذي هو اليوم الثاني من العيد عادت العساكر واحتشدت وثلاث فرق الموسيقى والحدم والحشم والالوف من المتفرجين

امام السرايى حتى كاد ذلك المحل الرحيب يضيق بهم وبعد نحو ربع ساعة انتظم عقد الموكب السلطاني وسار تقدمه فرقة الموسيقى التي على النمط المصري وخلفها رصيفتاها ثم المساكر فالاعراب المتطون صهوات الخيول المزدانة بالسروج المزركشة يقودها سواسها وكلهم برزي أحمر ثم عربة السلطان التي أهداها سموه ملك ايطاليا (السابق) تجرها أربعة من الجياد الشهب وعلى يسار سموه جناب الجنرال ولیم ماتيوس الوزير الاعظم ويحيط بالعربة نحو عشرين من فرسان الهنود ثم عربة جناب الامير خالد شقيق السلطان ف عربات أخرى كثيرة ثقل الحاشية والامراء وهكذا سار الموكب بأهته يطوف المدينة بين آلاف المتفرجين حتى وصل الى الشارع الكبير (شارع الاجانب) وهناك وقف هنيهة فانفجرت تلك الجماهير على جانبي الطريق ثم أخذ الفرسان الحرس يلعبون بالمزاريق والسيوف وهم على متون الخيل ألعاباً غاية في الفروسية وبعد ذلك عاود الموكب المسير الى أن وصل الى السراي وكانت الشمس اذ ذاك تودع الشرق الفها ثم ارتقب سموه ترجل حاشيته من حرم مصون وأميرات كريمات وغيرهن وبعد ذلك صدحت الموسيقى بالسلام وانصرفت تلك الجموع وهذا كان ختام حفلة عيد الفطر الرسمية في زنجبار

ولا يجري مثل هذا الاحتفال في عيد الاضحى بل يقتصر فيه على استعراض المساكر امام السراي ومد الموائد لجميع المسلمين المعدين على سموه كما يكون في عيد الفطر

وأما من جهتي فاني توجهت للسراي في اليوم الثاني حسب قول ناظر الخاصة الذي قدمني الى العمال زملائي ثم جلست على الطاولة التي تخصصت لي وهي في ذات المحل المعد للاستقبال اليومي الغير رسمي وبعد بضع دقائق شرف السلطان وجلس على عرشه يرمق الجميع بأنظاره وبعد برهة ناولني الناظر ورقة واذ هي اذن بخط

سموه للصراف عن مبلغ كذا يصرف لي بصفة انعام ثم أخذت في مباشرة عملي من مثل ترجمة دفتر طلبات السراي من الخارج وترجمة غازيت زنجبار ليقراها سموه أو ترجمة تلفرافات روتر اليومية وفي اليوم الثاني سألني الناظر عن قدر الماهية التي تكفيني وأعلمني بجمالات العمال الآخرين مثل الباشكاتب والمترجم الاول الذي هو في خدمة السلاطين من نحو ثلاثة عشر سنة والصراف واكثرها لا يزيد عن ثمانية جنيهات (اذ أن حساب الماهيات هناك وغيرها بالروية وليس بالجنيه فيقال ماهية فلان مائة روية مثلاً) ولما كان مضى علي بتلك الجزيرة اكثر من شهرين رأيت أن معدل مصرفي لا يقل عن عشرة جنيهات وعلى ذلك أخبرته بهذه العبارة وبعد قليل عاد وقال لي وان كانت هذه الماهية اكثر من ماهيات زملائك الذين هم أقدم منك في الخدمة ولكن طبقاً لارادة مولانا سيعطى لك ما طلبت ، عند ذلك ندمت ندامة الكسبي وقلت في نفسي اني ما دمت متبعاً قول الحق فلا أمل لي في الارتقاء مادياً ثم أخذت في تعنيف نفسي على عدم طلبي اكثر من ذلك

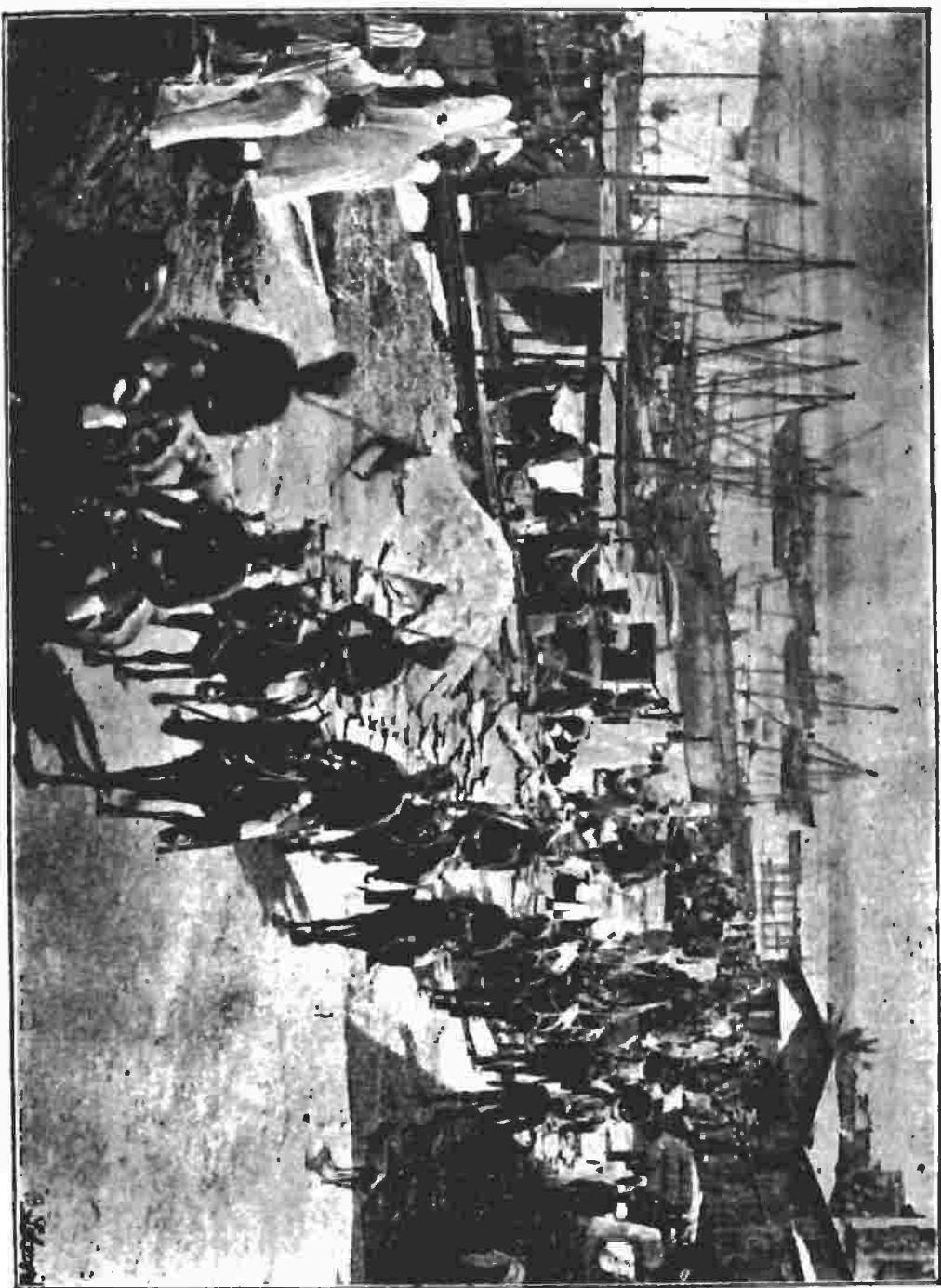
ومن ثم استأجرت منزلاً مناسباً وخادماً وأخذت في تعلم لغة البلاد حتى يسهل عليّ الوجود بين سكانها وقد أخذ الناس يتسابقون الى التعارف بي اذ أنهم مبالون كثيراً للتقرب ممن يسمعون عنه انه مصري الجنس محبوب لسماع الحديث عن تلك البلاد ، ولقد كانوا معجبين بلبسي ووضع الطربوش على رأسي وتسوية شعري (اذ كلهم على الاطلاق يحلقون شعورهم) على أن الاغرب من ذلك كله انني اذا استعملت رباط رقبة اسود قالوا هذا هو اللبغ أو رأوا زرة طربوشي متجهة للخلف قالوا هذا هو الصحيح وهكذا كانوا يقلدونني في سفاسف الامور لشدة ميلهم الى الجنس المصري الذي يلقب عادة عندهم على وجه العموم بالتركي لانهم لو قالوا (المصري)

لحاصل التباس لتسمية الحمار عند أعراب بلاد عمان بلفظة مصري كما ذكرت آنفاً

•••

علم القراء أن تلك الجزيرة وملحقاتها مستقلة وهي تحت حماية بريطانيا وان حاكمها أمير عربي يطلق عليه لفظة سلطان وهو من سلالة أمراء العرب الذين فتحوا هذه البلاد وقد ورد ذكره كثيراً في ما سبق ولكن للآن لم أذكر شيئاً عن شخص سموه وصفاته وللاتيان على ذلك أكتفي بتلخيص ما كان درج عنه في جريدة المؤيد ضمن رسالتي المدرجة بالعدد الصادر في ٢٦ مارت سنة ١٩٠٠ بتمرة ٣٠٢٣ مضيقاً إليه القليل

فهو سمو السيد حمود بن محمد بن السلطان سعيد رحمه الله الذي زرع القرنفل في زنجبار) وقد وُلد السيد حمود سنة ١٢٧٠ هجرية بمدينة مسقط عاصمة مملكة عمان وجلس على أريكة زنجبار يوم الخميس الموافق ١٧ ربيع الأول سنة ١٣١٤ وذلك عقب حصول ثورة أدت إلى انقسام الأهالي إلى حزينين . وتحرير الخبر أن الأمير خالد بن السلطان برغش قام مطالباً بكرسي المملكة بعد وفاة السلطان السابق رغباً عن أنف دولة بريطانيا التي شق عليها الأمر وكبر في عينها فرات أن تقنع بالتي هي أحسن وأن هناك من هو أولى منه بالملك وهو السيد حمود لكونه أكبر منه سناً فاحتج بأن السيد حمود لم يكن والده سلطاناً أما هو فابن سلطان ولم يرضخ فأعلنته بضرب الجزيرة وأعطته مهلة يومين فما كان منه إلا معاندتها عملاً بآراء المفسدين الذين التفوا حوله، فجمع الأهالي من أعراب وزنوج وسلحهم وأوقفهم متأهبين للقتال تجاه ثلاث مراكز حرية الإنجليزية كانت راسية إذ ذاك في الميناء ونحو الساعة التاسعة صباحاً من يوم الخميس ١٧ ربيع الأول سنة ١٣١٤ حيث كان انتهاء المهلة في تلك الساعة أرسل الأميرال يعلنه بأنه سيطلق قنابله مع عودة



الركب السلطاني

الرسول فما كان من السيد خالد الأ' المكابرة والاصرار على العناد اذ أنه قال للرسول انا مستعدون لحماية بلادنا فافعلوا ما تشاؤون ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ، فما عاد الرسول الأ' وصوّبت إحدى المراكب الانجليزية قنابلها على مركب حربي لحكومة زنجبار فأغرقتة في الحال ولا تزال ساريتاه مرتفعتين للآن على سطح الماء ، ثم وجهت قنابلها الى السراي السلطانية ، وفي الحال فرّ السيد خالد عارباً ملتحجاً الى الوكالة الالمانية ، وعندئذٍ نزلت العساكر البريطانية الى البرّ ونودي بالسيد حمود سلطاناً . أما خالد فقتله ألمانيا الى مدينة دار السلام عاصمة مستعمرتها ولا يزال بها لغاية الآن تنقده حكومة المانيا مبلغاً يعيش به .



وسمّو السيد حمود طويل القامة سمين الجسم قمحي اللون مستدير الوجه حلو العينين مهيب في مرآه الأ' أنه يرى أحياناً باسماء وهو محبوب من الاجانب اكثر من سواهم ميال الى تقليد المعيشة الاورپاوية المنزلية وربما كان أول سلطان عربي يستعين على الاكل بالشوكة والسكين ، ومن دأبه أن لا يعول في أعماله الخصوصية على الخدم والحشم أسوة اكثر ملوك الشرق بل انه يراقبها بنفسه ويدبرها تدير مقتصدٍ ويحضر يومياً في قاعة ديوانه الخصوصي حيث يقابل الاكابر والاعيان وينظر في المنازعات والمشاكل ويسوّيها بطريقة عادية وهو الرئيس العامل للمحكمة الشرعية العظمى ثم هو لا يخرج من قصره الا لترويج النفس ورياضة الجسم في منتزهه الخصوصي الكائن بعيداً عن المدينة في المزارع على شاطئ البحر وهناك يقيم بعض أيام . أما اذا كان بالمدينة فلا يخرج الا كل يوم جمعة بعد العصر فيسير بركبه المهيب حيث يحيط بعربته التي تجرها أربعة جياذ نحو ثمانية عشر من فرسان الهنود ويحيي في طريقه كل المارة باحناء الرأس قليلاً كما هي عادتهم ،

ثم ينام نحو الساعة الخامسة عربي ليلاً ويستيقظ حوالي الساعة واحدة نهاراً وبعد استعدادهم للخروج من قاعة النوم يتناول الفطور وينظر في خصوصياته ثم يحضر في قاعة الديوان أثناء وجود العمال وبعدئذ ينتقل الى مقاصير الحرم المصون (وكلهن من أهالي زنجبار أو المولدات بها) للنظر في حاجتهن وزيارة أنجاله وكبرهم (الامير علي) الذي أرسل لانهجترا للدراسة بها، ثم يعود ويتناول الغداء وحده وينام حتى العصر ولما يستيقظ يشرف الديوان كالصباح ثم يتمشى في ساحة قصره وعند غروب الشمس تماماً تحضر احدى فرق الموسيقى وتعزف السلام وتنصرف وقد يزوره جناب شقيقه أحياناً بعد الغروب فيمضي لديه وقتاً من الزمن . أما الجنرال الوزير^(١) فكثيراً ما يجتمع بسموه في بحر النهار ليعرض على مسامعه مهام الاعمال وأخذ آراء وأوامر سموه عنها . أما مآرقة فقاصرة على العربية التي درس منها شيئاً مع الشريعة الفراء بمكة المشرفة اذ أقام بها نحو ثلاث سنوات لما كان في شرح الشباب ثم السواحلية وهي لغة محادثته مع جميع الاجانب على اختلاف أجناسهم وبها يتحادث مع الوزير وهو ذو ذكاء فطري عجيب ، وترد لسموه أغلب الجرائد العربية المصرية والسورية حتى الساقطة منها ولكنه لا يقرأها البتة بل توزع على العمال حتى اذا كان بها شيء عن زنجبار أو أمر غريب في الطبيعة توضع عليه علامة وتقدم لسموه فيقرأ المرغوب منها

ولجلالته راتب شهري من الحكومة وقدره خمسة وثلاثون ألف روية عبارة عن ألفين وثلثمائة ثلاثة وثلاثين جنيهاً ومن هذا المبلغ يصرف المرتبات التي يعينها للامراء والاميرات نسل السلاطين وله غير ذلك ايراد وافر من المزارع والاملاك

(١) هو السير لويد وليم ماتيوس توفي في ١١ أكتوبر سنة ١٩٠١ والكتاب



حالة السيد حمود بن محمد سلطان زنجبار
(عن الفوتوغراف المهدى من جلالاته الى المؤلف)

التي صودرت إبان الثورة عند توليته فصار ملكاً له وهو مطلق التصرف في
الاعراب والزنج ولكن الى حدّ معلوم فيأمر بالجلد والطرده من البلاد والحبس
والغرامة وكل ذلك بمجرّد كلمة واحدة تخرج من فيه

ويعتبر الآن شقيقه الامير خالد بن محمد وليّ العهد نظراً لصغر سن نجله
الامير علي اذ بحسب وصية المغفور له السلطان سعيد جد السلطان الحالي يكون
الملك الارشد فالارشاد من العصب

ومن لطيف أعماله أنه لما رأى أن بريطانيا مصممة على منع الرقيق وتحرير
الارقاء دفعة واحدة وان الاعراب معارضون كل المعارضة قدح زناد فكرته وأظهر
ذكاءه الفطري حتى أتى بما أرضى دولة بريطانيا وما أدخل الاهالي الى السكينة
فقد وافق على منع تجارة الرقيق من جهة وأمر ببقاء الارقاء الحاليين لدى ساداتهم
من جهة أخرى بشرط أنه اذا أغضب العبد سيده أو بالعكس يرفع أمرهما للقضاء
الذي يأخذ بناصر المظلوم منهما وتكون النتيجة على الاغلب تحرير رقبة ذلك العبد،
ولولم يأت سموه بهذا الامر لفسد حال السادة والعبيد معاً اذ تبور أرض السيد
وبيس زرع ويحف ضرع كما وتعتسر وتعتذر على العبد معيشته بعد تركه فلاحه
أرض سيده حياً في لفظ الحرية الخلوة اسماً والمرّة فعلاً على مثله

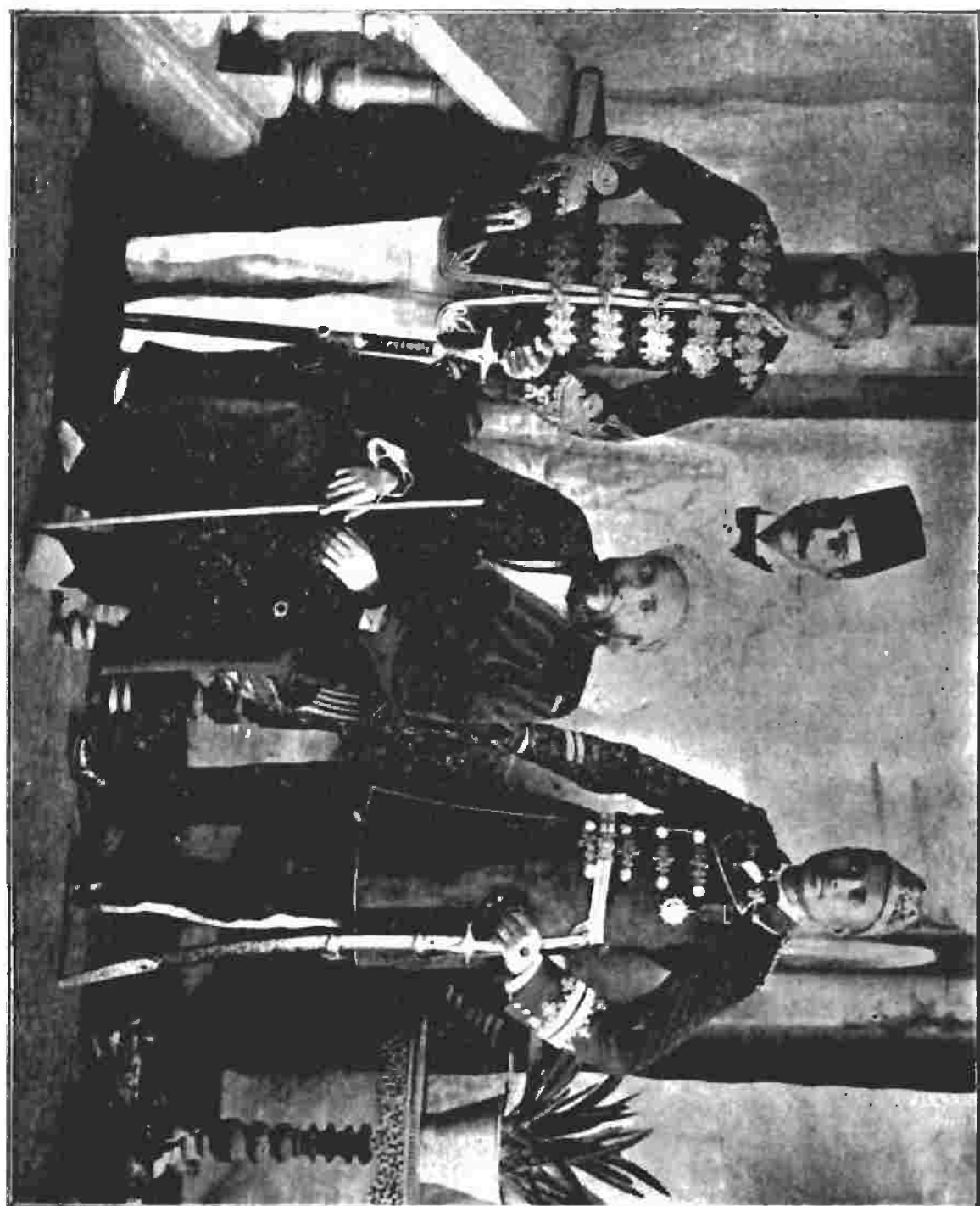


والسلطان ثلاث فرق للعزف والطرب ، الاولى فرقة الموسيقى التي على النمط
المصري وهي مؤلفة من اثنين وثلاثين نفراً كلهم من السواحلية وقد كان يرأسها
حديثاً رجل مصري وأصله جاويز في موسيقى السواري المصرية على عهد المغفور
له سعيد باشا . أما الآن فترئسها ذلك الزنجباري واسمه الميجر محمد ابراهيم
وهذه تصدح بألحانها المصرية المشجية يوماً بعد الآخر وقت العشاء تحت السراي

حيث تلعب أولاً الدور على الموسيقى ثم يغنونه بالمرية وأغلب أولئك المغنين لا يفهمون ما يقولون لعدم فهمهم المرية ، وأدوارهم مصرية مثل (فريد المحاسن بان) و (تيهك علي اليوم بسنين) وما شاكلها من الادوار القديمة . والثانية فرقة ذوات الاوتار وأنفارها زنوج ورئيسها هو رئيس الاولى وعملها يكون عند الظهر عند تناول السلطان الغداء . والثالثة فرقة موسيقى من هنود جاوى المسيحيين وأدوارها كلها افرنجية . وجلالته لا تصبو نفسه إلا الى الفرقتين الاولتين لانه يشغف كثيراً بالالخان المصرية



واذا كان السلطان بالمدينة تجري تشريفة رسمية للاعراب دون سواهم في صباح كل يوم جمعة . ففي الساعة الثالثة نهراً تصطف المساكن وتقدمها الموسيقى في ميدان السراي ثم ينزل السلطان من الدور الاعلى الذي ينام فيه فتعزف الموسيقى بالسلام ثم يقابله الامراء والعمال . وبعد أدائهم التحية والخضوع يدخل قاعة الاستقبال الكبرى ووراءه الامراء فالعمال . وكل من الامراء له كرسي مخصوص على يساره . وبعد أن يجلس ويحيي مثلاً شقيقه أو خاله يشير الى ناظر الخاصة أو الحاجب الاكبر بصعود المقابلين الذين من عاداتهم أن يحمل كل منهم سيفاً في الرسميات بخلاف الخنجر الذي لا يفارقهم الا عند النوم . وعند دخولهم يقف لهم ومعه الامراء والعمال وكلهم يتقدمون أمامه قليلاً ويحيونه واحداً فواحداً . وكيفية التحية هو أن الواحد يقترب أمامه وينحني للامام ويقول (صبحك الله بالخير مولانا) أو (سيدنا) ثم يجلس فيجلسون . وبعد ذلك يتناول الجمع القهوة (ما عدا سموه) وبعد بضع دقائق ينتصب سموه قليلاً دلالة الانصراف فينتصب الجمع ويحيونه واحداً بعد الآخر كتحيتهم عند دخولهم وينزلون فتصدق



الموسيقى بالسلام وعندها يقف السلطان ومن معه احتراماً للسلام ثم يخرج ووراءه
الامراء والعمال

ومما يحلو لديّ ذكره أني لم أقدم تحية سموه الا ويتسم في كل مرة .
ويغلب على ظني أن ذلك لسببين . الاول هو أني الوحيد بين كل العمال
والمقابلين الذي يحمل طربوشاً على رأسه . والثاني هو أني فريد في تأدية التحية
والسلام اذ كنت أؤدي ذلك بالطريقة المصرية التركية عند مقابلة عظيم لاني لم
أرغب في تقليد القوم في ما يقولونه لسموهم عند التحية



ومن لطيف ما أتذكره عن سموه بشأني هو أني كنت ضمن عماله
عند حلول عيد الاضحى فقبل العيد بيومين كان ناظر السراي يجاني نقحادث
ثم جرّنا الحديث الى ذكر العيد . عند ذلك قال لي الناظر : من الصواب
انك لا تحضر حفلة العيد مع المقابلين لانهم كلهم مسلمون أما أنت فسيحي . وانما
تأتي هنا قبل ميعة الحفلة فتقابل مولانا على انفراد وتؤدي رسوم المعايدة . وبعد
ذلك نقصد منزلك وتستريح هناك . فما كان مني الا الموافقة على رأيه اذ هو على
كل حال رأي حقيقي ليس فيه اجحاف بي . وبعد العصر توجهت للسراي
لمباشرة أعمالي كالعادة فحضر عندي الناظر متبسماً ثم قال اني أبديت الفكر الذي
اتفقنا عليه في الصباح لمولانا فلم يرح منه بالمرّة اذ أن سموه قال لي : كيف ان
كل العمال والبعيد من السراي يكونون مخفّلين منشرحين وهذا الغريب يجلس
في منزله كالخزين ، ان مثل هذا الانسان لا يليق بنا أن نجرح احساساته في
ظروف هو أحوج فيها للتسليه منكم . وعلى ذلك فلا بد من وجوده معكم يؤدي
أعمالاً مثلكم لانه من أولاد السراي فاذهب واخبره بذلك وسلمه مبلغ كذا

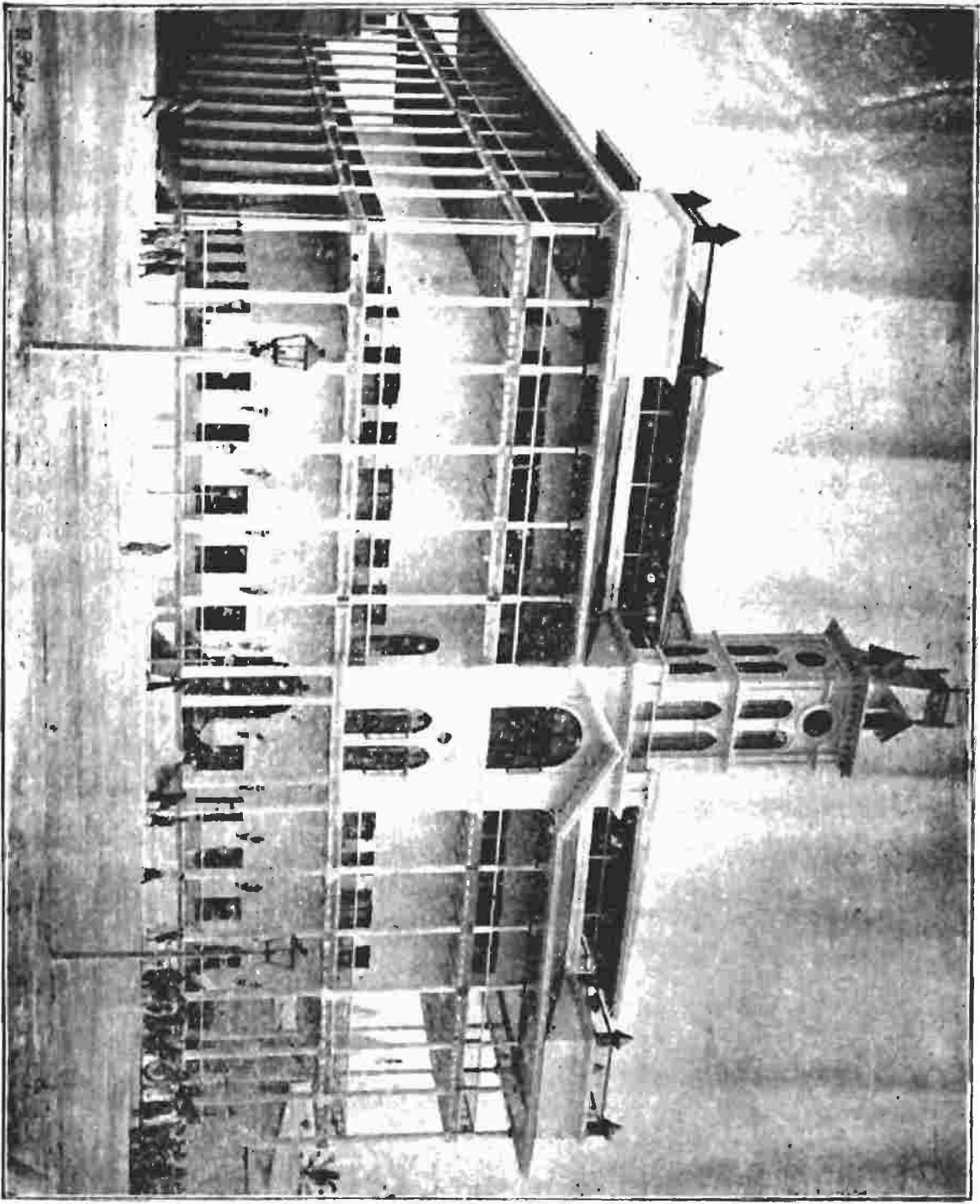
على قبول هدية العبد ولا فرق عندي في مثل هذه الامور بين المسلم والمسيحي
هذه كانت احساسات ذلك الملك الشريفة العالية نحو أحقر خدامه وهكذا
تكون آداب الملوك

على أنني وأيم الله بعد أن أصبحت الى كل هذه الاقوال لم أستطع أن أنطق
بكلمة شكر أو دعاء اذ أن لساني تلعثم وتذاك فاكتفيت أن أقابلها بدموع
فرح وسرور

اني لا أود أن أسترسل في مدح السلطان حمود (حفظه الله) خوفاً من أن
يتهمني بعض المطلعين على أقوالي هذه بأني أطمح الى مكربة أو مبرة . ويعلم الله
اني براء من ذلك وليس هذا من شيمتي فضلاً عن أني أعلم حق العلم أنه ربما لا تقع
أنظار سموه على هذه السطور . وانما الاقرار بالجميل من أقدم الواجبات وذكر
الحقائق من أوليات الفروض على كل من يمسك قلماً ويخط شيئاً ليدونه في
بطون الاوراق . ولو آمن القارئ النظر جيداً في كل كتابتي هذه لتأكد صدق
قولي هذا وكفاني مؤونة الاعتذار والتنصل اذ أني أمدح عند ما يلزم المدح
والعكس بالعكس



أما القصر السلطاني فهو بناء مربع فاخر بقرب شاطئ البحر وأمامه ميدان
فسيح مقامة فيه سارية للعلم السلطاني (الذي لونه أحمر عادي كالون المصري
بدون الهلال) ومنتشرة على جوانبه مدافع عديدة النفع من باب حسن هيئة المنظر
وهو ذو طبقين ترتفع كل منهما على نحو خمسين عاموداً من الحديد المجوف
المطلي بلون الرخام . وعلى المدخل الاول الحرس بالاسلحة والى كل جانب منه
مدفع ضخم . والبناء مربع من الداخل كما هو في الخارج وله درجان أحدهما



البراي السلطانية ونسي ديت المحائف

لطلوع ونزول سمّوه عليه وأمرء المائلة ووكلاء وقناصل الدول والثاني للعمال والخدم والحشم وكل الاعراب . ثم ان كل ضلع من البناء عبارة عن قاعة واحدة فيكون بكل دور اربعة محال . والدور الاول به قاعات الاستقبال للاعراب والاجانب ثم المديوان الخصوصي فاودة السفارة . والدور الاعلى للنوم والجلوس والخصوصيات . وأبواب كل هذه المحلات منقوش عليها الخطوط البارزة الذهبية اللون تحوي شيئاً من الآيات القرآنية الشريفة وبعضاً من آيات البردة . وفي كل قاعة أربع أو خمس ثريات كبيرة وكثير من المراآت الكبيرة لا تقل الواحدة منها عن أربعة أمتار ارتفاعاً ومتر ونصف عرضاً والكراسي المذهبة والمناضد العجيبة الشكل والصنع وكلها من الخمل والحريز المزركش والجلد والارضية في الدورين مفروشة بالسجاد العجيبة الغالية الثمن وفي منتصف الضلع الذي هو واجهة القصر بناء عامودي مرتفع كقبة الاجراس مركب بأعلاه ساعة دقاقة ذات أربعة أوجه تسمع من كل انحاء المدينة، ومن القصر يمتد ممرٌ موصل الى سرايات الحرم المصون والسراي والجواري ومنه يدخل ويخرج السلطان عند زيارتهم وعلى أبواب هذه السرايات قائم الحرس بالاسلحة آتاء الليل وأطراف النهار والقصر السلطاني وملحقاته المتصلة به تنار بالنور الكهربائي الابيض اللطيف والذي يقف بعد الغروب في ميدان السراي يتخيل له أنه في رابعة النهار لزيادة أنوار السراي مع المنارة السابقة الذكر الواقعة امامها وهذه هي السراي التي كانت صوبت عليها القنابل قبل تولية سمّو السلطان حمود وقد استغرق تصليحها زمناً طويلاً اذ أنه لم يتم الا في أواخر شهر يناير سنة ١٩٠٠

الفصل العاشر

أقوال عمومية

« نخوة صديق ، أقوال عمومية عن زنجبار ، العود الى الوطن »

إذا كان الاصل في الموضوع هو تطير حكاية وقعية عن ذات شخصي وما كتابتي عن مشاهد البلاد التي حلتُ بها الأُعرضية اكتبها ضمناً لعدم خلوها من الفائدة أو هي تأتي عفواً في سياق الحديث فيكون من المحتم عليّ أن لا أغفل شيئاً من خصوصياتي حتى على الاقل لا ينغصني ضميري فيما بعد على ذكر أمر بسيط واغفال أمرٍ مهم كالذي أحاول الآن تسطيحه وإذا صح هذا القول كان من الضروري ذكر العبارة الآتية في مقدمة هذا الفصل لتكون في مكانها من سلة رحلتي

كان من دأبي أني أصرّح بمكاتبي لاهلي وبالاخص لصديق حميم (أعدمنيه الدهر) بكل ما ينتابني من شقاء وينالني من هناء اذ كنتُ أقص لهم الامور بالخيط والابرة وعلى ذلك فقد كانوا على علم بكل الاجراءات التي اتخذتها في زنجبار للالتحاق بعمل ما وخبية مسعاي

فمن بعد أن ألحقتُ بخدمة السلطان بنحو ثمانية أيام ورد تلفراف الى التاجر المصري الحلبي آنف الذكر من عملائه بمصر بأن يعطيني ألف فرنك فوإن كنتُ لم أتاكد في ذلك الوقت كل التأكيد من هو مرسل هذا المبلغ الا انني لم أتحوّل عن الفكر بأن ذلك الصديق هو المرسل وبعد نحو خمسة عشر يوماً ورد البريد



الى تلك الروح الطاهرة الزكية أهدي كتابي هذا

ومنه تأكدت أنه هو هو بعينه وبأنه مستعد لاعتني بالدرهم على أي عمل تجاري اكتسب منه معيشتي ولكن لما كان سبق استخدامي أعدت ذلك المبلغ هو عن يد أحد شقيقي لعدم لزومه لي بالكلية

ربما يقول البعض وما مناسبة ذكر هذه العبارة مع انها ليست من التفكه بشي ولا هي ذات فائدة تذكر على انني أراني وكل من يقول ذلك على طرفي نقيض ولعمر الحق أني لم أقصد انتهاز الفرصة في تدوين هذه المبرة على صفحات الطروس جزاءً وشكراً لصانها (رحمه الله) اذ قد تم ذلك من قبل لاني أودعتها علناً بطون الاوراق في مكان خصوصي بعد أن أعلنتها على رؤوس الاشهاد يوم كانت فير الجماهير متجمهرة حداداً على ذلك الصديق وانما سطرناها هنا لثلاثة أوجه الاول لاني كما قلت توخيت في رحلتي هذه ذكر كل شي صادق في من طيب وردني وكبير وصغير والثاني لتكون هذه العبارة أنموذجاً أدبياً يتبعه الاصدقاء مع أصدقائهم وقت الحاجة والثالث وهو الالم ان كل من يقف على هذا السر المعلن يقول « رحم الله هنري خياط فقد كان براً بأصدقائه مخلصاً لهم على البعد والقرب »



أما عن زنجبار فمن لطيف ما كنت أراه وقت التمتع أن بين شبان أغنياء الهنود وشبان مصر شبيهاً كبيراً ووجه الشبه هو حب الظهور والفخفة من مثل تعلقهم بركوب الدراجات التي كثرت في زنجبار وركوب (الدوجكار) أو الفاتون والعربات ذات العجلات بالصمغ المرن (الكاوتشوك) وتفنن الاحداث في مسك السجاير وتدخينها ووضع زهرة على الصدر وغير ذلك كثير ولذا كنت أكاد أتصور أن ذلك الشارع موصل لجهة الكوبري والجزيرة وان كان شتان بين الثرى والثريا والزوج يخافون خوفاً شديداً من الكلب لحدائثة عهد وجوده وندارتهم بينهم

خصوصاً الإناث منهم فهنّ وإن كنّ سود البشرة إلاّ انهنّ رقيقات ضعيفات القلوب جداً يؤيد ذلك أن الرجل لا يستطيع أن يمدّ يدهُ على المرأة لأن التناول عليها بالضرب أو السباب يعدّ عيباً لا يأتيه إلاّ كل ذميم باعتبار أنها أضعف من الرجل : نعم هذا هو دستور الزوج العجمي — فيا للعجب

ومن عاداتهم أن البنت إذا بلغت أشدها تفرض عليها امرأة (مثل بلانة لها) أن لا تكلم أحداً مسافة ثلاثة أو أربعة أيام إلاّ إذا أعطاها انسان نقوداً يشترط أن تكون من فضة، وهي إذا رأت إحدى صاحباتها أو معارفها اللاتي هنّ اكبر منها سنّاً ركعت امامها دون أن تسكها وسبب ذلك ان الصغيرات يحترمن الكبيرات فاذا بلغت الصغيرة يقال عنها أنها صارت في مصاف النساء ولذا فهي تؤدي الاحترام الاخير لمن كنّ اكبر منها وفي ذلك الوقت تلقب البنت بلفظة (ماري) أي راشدة والاعراب والزوج والهنود الاسلام لا يأكلون في الطريق معها كان الامر وهم يعتبرون ذلك عيباً عظيماً ومن أتاه 'كأنه' أتى شيئاً فرياً ولا مزية في ذلك فان الدين الحنفي يستحسنه كما انهم لا يأكلون إلاّ باليد اليمنى دون معاونة اليسرى التي لا يجوز أن تمس شيئاً مطلقاً من المأكول بحجة أنها تؤدي وظيفة أخرى — وشتان بين وظيفتي اليدين

وأعراب زنجبار الذين أصلهم من بلاد عمان متمذهبون بمذهب الاباطية وهم ليسوا على وفاق مع تابعي المذاهب الاخرى وهو أمر غريب في الدين الاسلامي المشهور باتحاد مذاهبه باعتبار أنها عبارات عرضية لا تؤثر في الجوهر وعادة الاباطيين عند ما يسرون في جنازة يكتبون بأن يقول واحد منهم بصوت عالٍ هكذا : صل على الرسول ، صل على النبي ، يا حي يا دايماً ، دون ذكر أقوال أخرى ولقد كان أحد الاباطيين الذين من زنجبار أتى مصر وطبع بها كتاباً لا يفهم



الزنجية الحسنة

له مبنى ولا يعرف منه معنى وخلاصته الكلام ضد المذاهب الاخرى ثم أخذ منه نسخاً وعاد الى زنجبار زعماً منه أنه يرضي فريق الاعراب الاكبر هناك بل يستجلب رضا السلطان نحوه (لان سموه أباظي المذهب) فمئذ ما بلغ الخبر مسامع سموه أمر باحضار ذلك الرجل وكتابه وبعد أن اطلع على بعض منه أمر بزرجه في السجن وقد كنا في تلك الساعة في عملنا في الديوان فحضر الينا ناظر السراي قائلاً « ان كل من يتشفع في فلان الفلاني لا بد من أن يكون نصيبه معه وهذا حسب نطق مولانا » نعم ان السلطان محق في عمله لانه يخشى أن يتسبب عن هراء ذلك الصعلوك أمور خطيرة تكون مغبتها الاجهاز على تلك الفضلة الباقية من تلك المملكة خصوصاً وان الامر ديني فتكون قد جنت على نفسها براقش وللزنجباريات (وهذه اللفظة تشمل الاعرايات واللاتي من بلدة لامو على ساحل أفريقيا الشرقي وتابعة لزنجبار . واللاتي من جزائر انجازيجا الواقعة غرب زنجبار وتابعة لفرنسا) موسم كبير يتعلمن فيه فنون الرقص وضروب الخلاعة بحجة أن المرأة تعلم ما تستجلب به رضا رجلها واقتنائه برشيق حركاتها . ولهن محل خارج المدينة في وسط المزارع يرحن ويفدون اليه صباحاً ومساءً مدة الموسم ، وهناك المعلمات من العجائز الداهيات وهن يعجن كثيراً بمن ثقتن ذلك الفن الواسع . ومن ضمن ما يتعلمنه المشية ، مشية التبخر المقاربة للرقص وكلام المؤانسة وعبارات تبادل الهوى والفرام والنكات الرقيقة المضحكة .

ومجمل ما يقال عن حالة زنجبار الادبية أن العفة والصيانة وكل هذه المرادفات تكاد أن تكون غير معلومة هناك ولا يعلمها الا النزر اليسير من بعض جاليات الامم الاخرى . وفي هذا القول كل المعنى الذي أريده والسلام

ولقد فاتني أن أذكر شيئاً عن العسكرية وقوتها في المكان الذي كان يلزم ذكرها فيه . ومع كلِّ فلا مانع من إيراد الكلام عليها الآن حتى يقف القراء على قوة تلك المملكة أو الدولة أو ربما السلطنة المستقلة

فالعسكرية هناك لا يزيد عددها عن نحو خمسمائة نفر تقريباً ما بين عساكر وصف ضباط وضباط يرأسها اللواء (جنرال بريجاديه) ريكس الانجليزى والباقون كلهم من الزنجباريين . وبينهم أميرالاي يسمى محمد بن سعيد وقائمقام لم يحضرني اسمه . والعساكر ليس لهم عمل حربي البتة سوى المحافظة على الامن العام أو مسيرهم في الاحتفالات الكبيرة الرسمية . وأحياناً يستعرضون في ميدان السراي على قبول تفرج السلطان والاهالي أيضاً . وملابس العساكر من الكاكي الهندي وعلى رؤوسهم طاقية أفرنجية أما الطربوش فلاحفلات الرسمية . وهم حفاة الاقدام لانهم لا يطبقون لبس الاحذية . وملابس الضباط التيل الابيض والاحذية البيضاء اللون والطاقية الهندي المزركشة بالقصب ولا يقل ثمن الواحدة منها عن جنيه . ومعدل مرتباتهم الشهرية بوجه القريب هو : ستون قرشاً للعسكري النفر . وجنيه للصف ضابط . وجنيهان للملازم . وأربعة لليوزباشي . وستة للبكباشي (الميجر) . وعشرة واثنى عشر للضباطين العظميين وهما القائمقام والميرالاي الآتني الذكر

والعسكرية ليست اجبارية بل هي اختيارية لكل من يريد الانخراط فيها عند الطلب . وأغلب الضباط أميون لا يدرون الكتابة والقراءة الا القليل منهم من يدري شيئاً من العربية البسيطة ولكنهم والحق يقال نهالاً للغاية سريعو التقليد يؤيد ذلك القول أن الاميرالاي (الكولونل) محمد بن سعيد لما كان صياً كان يقف بين المتفرجين ويرى تعليم العساكر الذي كان ابتداءً في أوائل عهد

المغفور له السلطان برغش (وهذا السلطان كان زار البلاد الاورباوية وعرج على القطر المصري بدعوة من الخديو السابق المغفور له اسماعيل باشا) وبعد انتهاء التعليم والتفرج كان يجمع صبية الازقة والشوارع ويعلمهم مقلداً كل ما كان رآه أو سمعه . وبينما كان ذات يوم مستعرضاً فرقة شاهده السلطان برغش فانسر منه جداً وبعد أن أحضره أمامه أدخله في العسكرية ، وبعد أيام قليلة ارتقى الى ملازم وهكذا حتى صار الى هذه الدرجة . وقد رأيت يستعرض العساكر بدل الجنرال الانجليزي وفي حضرته . ورأوه اجانب كثيرون من المارين بالمراكب فاذا هو عارف تمام المعرفة بالاصول وقواعد الحركات العسكرية وهذا حسب القول الذي سمعته مراراً من الاجانب

وليس ذلك فقط بل ان السلطان برغش لما حضر الى مصر كما ذكرت وسمع الموسيقى وألحانها المشجية طلب أن يكون له فرقة موسيقى . فأرسلوا له عدداً من أرباب هذا الفن وغيرهم من أرباب الآلات ذوات الاوتار . فلبثوا مدة يُنقِدون الجمالات الكبيرة . وقد كان أولاد الازقة يقلدون بأفواههم وأصواتهم كل ما سمعوه من الالحان والنفثات

ولما بلغ ذلك مسمع السلطان الحاكم في ذلك الوقت وهو السلطان علي صرف المصريين واعتاض عنهم بزنج واکتفى برئيس مصري يعلمهم . أما الآن فاستغني عن ذلك الرئيس برئيس آخر زنجباري وقد سبق ورود اسمه . وهم الآن يؤدون أعمالهم على ما يروم السلطان



ومن العار الشنيع أن أولئك الاقوام من أعراب وزنوج وغيرهم لا يعرفون أسماء مسميات بسيطة الا بالانجليزية مثل قولهم (الميل) عن الباخرة و (باراكس)

عن ثكنة السكر و (جادن) عن الحديقة و (أوفيسا) عن الضابط و (مانوار) عن المركب الحربي و (استامب) عن طابع البوسطة و (الافيس) عن المكتب أو الديوان و (إتشف) عن الرئيس و (اهوتيل) عن الفندق و (بوك) عن الدفتر أو الكتاب و (تايم) عن الوقت و (شامبا) عن المزرعة و (بنسل) عن القلم الرصاص و (الميشن) عن المرسلين و (شاتي) عن القميص و (كاللا) عن الياقة أو رباط الرقبة و (سوكس) عن الجورابات و (الاستيم) عن البخار و (النجنيير) عن المهندس و (رجستر) عن سوكرة الجواب أو التوصية عليه و (جودج) عن القاضي و (الكات) عن المحكمة و (الكوتي) عن السترة و (البل) عن كشف الحساب أو الفاتورة و (الريل) عن السكة الحديد و (جايد) عن الدليل و (الاستيشن) عن المحطة ، وألفاظ أخرى كثيرة وكلها لا تفهم لديهم إلا باللفظ الانجليزي المحرف

اتفق مرة أن باشكاتب الديوان السلطاني كتب مكتوباً لـ واحد أصحاب الجرائد الصغيرة بمصر وكان ذلك ثاني يوم استخدا مي ثم ناولنيه لتلاوته واذ فيه هكذا : ومبعوث لجنابكم الاستامب المطلوب : فسألته وما هو الاستامب فأجابني : هو هاذاك الذي يوضع على البخشة فسألته ثانياً : وما معنى البخشة فأجاب هو هاذاك الذي يوضع داخله البروه فلم أفهم هذه أيضاً فضجر من تكرار سؤالاتي ثم بحث في طاولته وأخرج منها جواباً وارداً وأشار على الطابع بأنه هو الاستامب والبخشة هي الظرف والبروه هي ذات الجواب وبعد أن ضحكت كثيراً قلت له بما أن هذا المكتوب لمصري أو هو سوري فالاصوب تغيير لفظة استامب بلفظة طوابع فلم يقبل قائلاً : كل انسان يكتب ما يعرف وأنتم يا مصريون أمكن منا نحن الاعراب في العربية . على أن الحقيقة التي رأيتها ان اللغة العربية براية من

هؤلاء الاقوام فيا خيتاهُ على الاعراب ويا ضيعناهُ على العربية ويا نكبتاهُ على ما آل اليه أمر الناطقين بالضاد

معلوم أن جلالة السلطان عبد الحميد خان أمير المؤمنين هو خليفة الاسلام قاطبة الذين على وجه البسيطة وقد عرفنا أن زنجبار هي مملكة أو بلاد عربية اسلامية فهل لها علاقة بذلك الخليفة ؟ حاشا من ذلك ، نعم انهم محافظون للآن على الخطبة في الجوامع باسمه ولكنهم لا يعلمون عن جلالته شيئاً غير ذلك لا سياسياً ولا دينياً وقد أرى أنه كان من الواجب أن تكون لخليفة الاسلام علاقة دينية مع تلك البلاد ولا تكلف جلالته أكثر من ارسال بعض القضاة الشرعيين لمباشرة الامور الشرعية وبث التعاليم الدينية شرطاً انهم يكونون من المصريين وليس من الاتراك للين عريكة أولئك ولسهولة معيشتهم في طقس تلك البلاد عن الاتراك . بل لماذا لا يكون بزنجبار معتمد عثماني ، فكثيراً ما يمر على تلك المينا بل ويوجد أيضاً بها كثيرون من الرعايا العثمانيين ، حتى يكون مرجع أمورهم اليه أسوةً بالدول الاخرى ولكن الى من يوجه القول والكل قد وضعوا أصابعهم في آذانهم .



في أواخر أيام وجودي بزنجبار كانت ثارت فتنة بلاد عاشنتي المشهورة ولما تعاظمت الثورة واندلع لهيبها في أماكن كثيرة وحاصر الاهالي مدينة قوماسيا وفيها الحاكم الانجليزي رأت بريطانيا ضرورة ارسال قوة كبيرة لاختاد نيرانها ولكن من أين لها أن تأتي بتلك القوة وباب الحرب الترنسفالية لا يزال مفتوحاً وكلما قدمت له الآلاف قال هل من مزيد ، على انها لم تكن مرتبكة بهذه الحرب فقط بل كانت قامت قيامة البوكسرص أبناء مملكة ابن السماء ومن ثم اتحدت الدول العظمى على ارسال تجريدة متحالفة الى تلك البلاد ولم يكن لبريطانيا الا أن تسد هذا

الطلب من الجيوش التي في جنوب أفريقيا رغماً عن شدة احتياجها اليهم ، فلما قامت ثورة العاشتي المذكورة نظرت يمينا وشمالاً وأخيراً لم تجد أمامها سوى زنجبار الضئيلة فأرسلت احد مراكبها الضخمة المسمى «تروپر» فرسا بمومباسا أولاً وبعد أن جمعوا منها ما جمعوا عرج على جزيرة زنجبار ورسا في مينائها وكانوا يشيرون للزئوج انهم يريدون ارسالهم الى احدى الجهات القريبة وبعد ستة شهور يعودون ، وقد خصصوا اجرة النفر الشهرية جنياً خلاف لوازمه الاخرى فكل من كان يرغب أو يرغب سيده 'تاجيره' كان ينقد ماهية ثلاثة شهور مقدماً ثم ينقلونهم أفواجا الى سطح المركب ، وقبل جمع كل العدد اللازم عرف الزئوج أن اخوانهم سائرون لمحاربة وقاتل على مسافات بعيدة جداً من بلادهم فأجمعوا عن التقدم اليها ولما رأى الانجليز ذلك عمدوا الى انتقاء اللاتقين من المسجونين ونقلهم الى السفينة ومع ذلك فلم يتم العدد المطلوب ، عند ذلك أمروا رجال البوليس بالقبض على كل زنجي يرونه ماراً في الطرق والشوارع بعد الساعة الرابعة العريية ليلاً وبما أن أهالي زنجبار لا ينامون قبل منتصف الليل فقد جمعوا بهذه الطريقة العدد الباقي في ظرف أربعة ايام ولما علم قناصل الدول بما كان من طرق التجنيد هذه فافوضوا جناب قنصل جنرال بريطانيا عنها وقد بلغني أنهم كادوا يقيمون الحجة على هذه الاعمال الا أن سمو السلطان تداخل في الامر وعلى ذلك أقلع «تروپر» والصراخ يتبادل بين من في المركب ومن على الشاطئ - فله الامر من قبل ومن بعد

أما من جهتي الخصوصية فاني بعد مضي ستة شهور في خدمة السلطان أخذت تستهويني الافكار وتعبث بي عبث الرياح بريشة فكنت أناجي نفسي قائلاً: وما هذه العيشة المنفردة حيث لا أنيس لي يؤنسني أو هل اكنتي بخدمتي هذه

ظافراً منها بالكفاف إذ أن مبلغ العشرة جنيهات جمالي الشهري لم يكن يتبقى منه شيء ولا أمل لي في زيادة جمالي يوماً ما لأن ذلك المبلغ (الطائل) يصرف لي بنوع استثنائي وهو أكثر مما لزملائي الذين هم أقدم مني عهداً كما أوضحت ذلك قبلاً، فضلاً عن أني رأيت أن صحتي آخذة في الضعف كما واني رأيت أن قوة بصري انحطت عن قبل حتى اضطرت بعد استشارة الطبيب مراراً إلى استعمال العوينات وبخلاف ذلك فإن المكاتب كانت ترد لي تباعاً من أهلي وخصوصاً من ذلك الصديق المخلص وكلها لا تتضمن سوى الإلحاح عليّ بالرجوع العاجل فصرت حينذاك بين عوامل قوية تتنازعني البقاء أو الرحيل لبلاد أخرى أو العود إلى الوطن حتى في أواخر يولييه سنة ١٩٠٠ ترجع عندي عدم البقاء بزنجبار ومالت نفسي إلى السفر للهند وكأني أصبتُ بمرض من شأنه الميل إلى مشاهدة كل البلاد القاصية - ولا لوم عليّ في ذلك فالجنون فنون - فأخذت أستعلم عن كل ما يلزم الاستعلام عنه ونويت الرحيل دون أن يؤثر عليّ وجود الطاعون أو تسلطن القحط في تلك الانحاء وقد كتبتُ لأهلي وأصدقائي وعرفْتُ أخواني بزنجبار عن ذلك

وفي يوم الأربعاء أوّل أغسطس أخليتُ طريقي من خدمة السلطان بعد أن مهدت السبيل من قبل بوضع أيام . ولبثتُ أنتظر الباكسة ثم أمر السلطان في يوم الاحد ه منه بمثولي بين يديه . وعند العصر تشرفت بدخولي في غرفة مكتبته الخصوصية . وبعد أن أذن لي بالجلوس قريباً من أنظاره سألني : متى يكون السفر ؟ فأجبتُ ربما بعد يومين أو ثلاثة يا مولاي . ثم قال بما أننا عزمنا للركوب إلى (شيكواني) المنتزه والبقاء هناك بعض أيام استصوبنا أن نراك قبل السفر . وأردف كلامه قائلاً : وإلى أين العزم ؟ فأجبتُ ربما كان لبلاد الهند إذا أراد المولى . فبسم وقال : أليس من الصواب أن يكون لوطنك ، حتى إذا أردت

المود الى زنجبار كان لك ذلك على الرحب والسعة ؟ فأجبتُه : أمر مولاي مطاع
الا أنني لا أرى ما يضطرنني الى ذلك . وفي الحال أمر خادمه فأحضر رسماً
لسموّه بملايسه الرسمية وكتب عليه هكذا « صحيح حمود بن محمد بن سعيد » ثم
قال اني أعطيك هذا الرسم مكتوباً عليه بقلمي وهو أعظم برهان على رضائي عليك ،
فتناولته بأيدي الشكر والخضوع متبادلاً يدهُ الكريمة مرّات . وأخيراً منحي شيئاً من
نعمه وانصرفتُ شاكرًا متابعًا ذلك الرسم الرفيع القدر

فلبثتُ أنتظرُ ورود الباخرة التي تأخرت عن ميعادها حتى في صباح
يوم ١٣ أغسطس كانت الباخرتان القاصدتان بومباي وأوربا راسيتين في المينا .
عند ذلك ترددت في السفر لاتي جهة . ثم قصدت مكتب شركة البواخر
وهناك انتظرت بضع دقائق ريثما ينتهي العامل من العمل الذي كان يدهُ ثم قلت
لهُ أن يعطيني تذكرة درجة ثلاثة للسويس . وبعد أن ناولتهُ ثمنها وهو عشرة
جنيهاً وأخذتها صرت أفكر في هذا الهوس الذي اعترائني حتى لما وصلت الفندق
وعلم صاحبهُ بما عزمت عليه لم يكن اندهاشهُ أقل من اندهاشي ثم أعلمتُ باقي
الآخوان والمعارف بذلك .

وعند الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم نزلتُ بالباخرة الالمانية « كوخ »
وهذه كانت المرّة الرابعة لركوبي البحر . وعند منتصف الليل أقلعنا من زنجبار .
وفي الضحى رسينا على بلدةٍ تسمى « تانجه » على ساحل أفريقيا الشرقي من ضمن
المستعمرة الالمانية وهي ليست مشهورة بشيء سوى أن الالمانيين يمدون منها خطأ
حديدياً سيكون منتهاهُ عند بحيرة تانجانيقا ولضييق الوقت لم نتمكن من النزول بها
اذ أننا أقلعنا منها حوالي الظهر

والباخرة كبيرة من أحسن بواخر الشركة الالمانية التي تنحدر في المحيط الهندي .

ولذا فقد كنا على غاية من الراحة . وقد كانت تسير بسرعة عشرة أميال بحرية في الساعة مع أن بواخر المساجيري مارينيم الفرنسية تسير أكثر من ذلك . وكنا نعرف سرعة المسير من شيتين إما الكشف الذي يعلقه القبطان وقت الظهر يومياً وهو مبين به المسافة التي قطعتها البخرة في مسافة أربع وعشرين ساعة . وإما من التاشومتر . وهذا عبارة عن آلة أشبه بالساعة مركبة في مؤخر البخرة ومتصل بها حبل ربما لا يقل طوله عن مائتين وخمسين متراً مربوط بطرفه الثاني قطعة رصاص وبقرها عصاً قصيرة موضوعة في الحبل بشكل هندسي ، والحبل مدلى في البحر . فعند ما تسير البخرة يكون الحبل مجزوراً وراءها ويدور طرفه المدلى في الماء فيدير الحبل كله ثم هذا يدير محور الآلة وبذا يدور العقرب على أعداد الأميال وكلما ازدادت سرعة مسير البخرة أسرع دوران الحبل وهلم

وفي يوم ٢٠ أغسطس وصلنا الى عدن فنزلنا بها وشاهدناها مرة ثانية وأغلب ما كتبت عنها في ما سبق هو من مشاهدي اياها هذه المرة وقد أقلعنا منها في نفس اليوم

وعند الساعة الثانية صباحاً من يوم ٢٦ منه وصلنا ميناء السويس ثم بعثت تلغرافين لاهلي وصديقي (الأسوف عليه) وفي اليوم التالي ركبنا القطار الى القاهرة



من ذا الذي كان يعلم أن قديمي تطآن أديم تلك الاراضي السحيقة وعيني تنظران ما نظرتاه — نعم اني كنت أجد في نفسي شعوراً أيام حدثتي عند ما كنت أدرس الجغرافية عن مدغشكر وبلاد كفرنور يا حتى اني كنت أتخيل اني واقف بتلك البلاد — والله شهيد علي في ما أقول

الفصل الحادي عشر

السفر الى بر الزنج ثانية والعود الى الوطن

لم يمضِ عليّ بمصر ثلاثة أشهر من بعد عودتي من سفري الطويل إلاّ وداهمني مصابٌ كان كطودِ دُكٍّ عليّ ناصيتي حتى سُمْتُ الحياة ومِلْتُ الوجود في الوطن فقد نكبتُ بفقد صديقي المخلص بل خلي الوفي الذي كان سبباً عظيماً في عودتي فلطالما ألحَّ عليّ في مكاتيبه العديدة بتجهيل العود خصوصاً لحضور حفلة زفافه ولكن أبي الدهر الخوّن إلاّ أن أحضر تشييع جنازته وأصبَّ عليه الدمع الحار بدل حسو العقار — فواحسرتاه

ولما علم بعزمي على مفارقة الوطن صديقي العزيز الاسيف زكي افندي باسيلي سكرتير هندسة السكة الحديد المصرية بسوهاج رأى أن يرافقني الى حيث تلقى بنا المقادير وذلك تخفيفاً لثقل أحزانه وهرباً من فرط أشجانه

على اننا بعد تردد الفكرة رأينا أن لا حظاً لنا في السفر الى أوروبا ولا سرور لنا في ملاهيا فأثرنا المناظر الطبيعية الهمجية عن محاسن مشاهد البلاد الاورباوية وقد استقرَّ أخيراً رأينا على السفر الى زنجبار لكوني خبيراً بها مطلعاً على عجزها وبجورها ملأاً بلغة قاطنينا

ولما كنا تأهبنا لركوب البحر يوم ١٦ يناير سنة ١٩٠١ باحدى بواخر شركة المساجيري ماريتيم الفرنسية وأخذنا تذكرتين بالدرجة الثالثة ثمن كل تذكرة ثلثمائة وثلثين فرنكاً ركبنا القطار من القاهرة ظهر يوم الاثنين ١٤ منه الى السويس ولبثنا هناك في انتظار وصول الباخرة من أوروبا حتى عند الساعة العاشرة من مساء

يوم ١٦ منه علمنا أنها على وشك الوصول ولقد كان البرد قارساً في تلك الليلة الحالكه الجلاب ومع الاسف لم يكن لنا مأوى سوى حوش مكتب تلك الشركة العظيمة الايراد الضانة على ركبها بما لا يكلفها شيئاً يذكر، وقبل منتصف الليل انتقلنا الى الزورق فجلسنا القرفصاء نقاسي ذلك الزمير المولم ولما تحرك بنا هاج في شجن كان كامنًا في صدري خصوصاً كلما نظرت الى زميلي وتصورت تلك الاسباب التي أرغمته على فراق صغاره فلذة كبد وحشاشته قد فقت عبراتي وتصادت زفراتي وذلك الزميل يئن أنيناً ويتوجع توجعاً لندكاره ماضيه

وبعد نحو ساعتين ألقى الزورق مرساه في وسط القنال بعيداً عن الباخرة التي لم تكن نأقده الى حيث يجب أن تلقى مراسيها وعند الساعة السادسة صباحاً ألقى المراسي واقتربنا منها فبعد أن صعدنا اليها عرفنا أن رفاصها الذي هو أهم الآلات أصابه تلف يوجب تأخير سفرها عن ميعادها ولما كان أعياننا السهر والبرد طول ليلتنا رأينا أننا في احتياج كبير للراحة فنزلنا البر وقضينا سحابة اليوم في أحد فنادق الحوض وفي المساء عدنا للباخرة ونمنا بها وهي راسية وفي الصباح بلغنا أن التلف الذي أصابها يحتاج تصليحه الى وقت طويل وفي اليوم الثالث اضطرروا الى ادخال الباخرة في الحوض لكشف المياه عنها وتصليح الرفاص أو استبدالها وهكذا صاروا يمدون مدة التأخير من يوم الى آخر ونحن نقضي زهاء اليوم بين مدينة السويس ومنتزه الحوض والليل بالباخرة

وعند الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٥ منه أو من بعد ميعاد السفر بتسعة أيام أقلت بنا الباخرة « جمناء » من السويس وفي الغروب اخفت عن أبصارنا شواطئ بلادنا فبعد أن تناولنا طعام المساء تمسنا على السطح وبعد ذلك غما وفي صباح اليوم الثاني تناولنا القهوة والابن وصعدنا على السطح كمادة جميع الركاب وبعد قليل أسرع

زهبلي عائداً الى فراشه فنزلت اليه وابتدأت أن أشجعه ولكن قبل أن أتم تشجيعي له تمددت بجلي أنا أيضاً فأخذنا نتسلى تارة بالقراءة وأخرى بالنوم أو التناوم وعند الظهر نشجعنا وقتنا لتناول طعام الغداء ولكنني ماكدت ألتقم اللقمة الاولى الا وتركت المائدة وأسرعت نحو الفراش وكأن زهبلي أصابته مني عدوى كما أصبت منه في الصباح فتبعتني في الحال الى الفراش ولبثنا نهارنا وليلتنا بدون غداء وفي ضحى اليوم التالي أتى شاب حبشي كان قادماً من أوروبا ومسافراً معنا الى جيبوتي وأخذ يشجعنا على القيام من الفراش فعملنا بنصيحه وتناكدنا بعد ذلك أن دوار البحر ناتج من الفكر فيه ولذا لا يلزم الانسان أن يستسلم له بل يتغلب عليه ويمضي وقته في تلاوة الروايات أو الكتب المسلية أو لعب الالعاب مثل الورق والدامة والطاولة ان تيسرت هذه وما أشبه وهذا ما ذكرته آنفاً وقد أعدت التنويه عنه الفائدة . أما مائدتنا فكانت مؤلفة من فرنساويين وفرنساويات وثلاثة تليانيين والشاب الحبشي آف الذكر وكلينا المصريين ، ولكل منا على المائدة محل معين لا يتغير ، وقد كان يلوح على وجوه رفاقنا عدم الارتياح منا وقد علمنا بعد أن السبب في ذلك هو لبس الطربوش لأن أغلب الاورباويين على ما اخبرت لا يميلون للعثمانيين لعله ما نقوله وثنناقله عنهم الجرائد عن طباعهم وأفعالهم وسياسة ساطانهم (الخرقاء كما يدعون) ولكننا لما رأينا أن اشمئزازهم يطول علينا شرحه لطول مدة رفقنا أخذنا نستميلهم شيئاً فشيئاً حتى ان أغلبهم صاروا يتقربون منا قبل تقربنا منهم ولقد كان يعجبنا كثيراً مزاحهم وغناهم وخصوصاً اتحادهم في كل شيء فمثلاً اذا قال أحدهم : ان الشورية ليست مصنوعة جيداً فالكل يقومون معه لشكوى كبير خدام المائدة وهكذا من صفائر الامور - فإين لنا من ذلك في الامور العظيمة

ونحو الساعة الثانية صباحاً من يوم ٣٠ يناير دخلنا ميناء بوتي وفي الشروق
نزلنا البرّ وبعد أن تناولنا قهوة وتمشينا عدنا للباخرة التي أبحرت من هناك في الساعة
العاشرية صباحاً من ذات اليوم . ومن ثم أخذنا نسير في خليج عدن والمحيط
الهندي الذي كان أكثر سكوةً وهدوءاً من البحر الأحمر

وبعد ظهرية يوم ١ فبراير ظهرت لنا أطراف جزيرة زنجبار المعجبة بثوبها
الاخضر النضير وسط المحيط الهندي حتى عند الغروب أغقت الباخرة مرسأها في
الميناء . وبعد نحو ساعة نزلنا البرّ ومعنا أمتعتنا وقصدنا فندقاً وبعد أن غيّرنا
ملابسنا رأيت أن زميلي لا يهدأ له بال الا اذا تمشى قليلاً في المدينة . ومن ثم
خرجنا للتمشي ولكن ما ابتعدنا عن الفندق قليلاً الا وأمطرنا السماء مدراراً فقفنا
راجعين ونمنا

ومضينا اليوم التالي في التجوال في أنحاء البلدة لتفرج زميلي عليها ولما كان علم
الاصدقاء والمعارف بوصولي أتوا لزيارتنا . وفي اليوم الثالث تناولنا مسهلاً وقايةً
من شرّ تغير الطقس والغذاء والماء

وبعد أن أقفنا بالفندق خمسة أيام استأجرنا منزلاً بأجرة شهرية تبلغ أربعة
جنيهاً الا ثلثاً ومن ثم انتقلنا اليه وأحضرننا بعض أدوات ولوازم وربطنا حالتنا
ولما كان سموّ السلطان بالمنتزه وقد عاد في يوم ١٢ منه توجهت لزيارة ناظر
الخاصة وقد علمت منه أن سموّه علم بوصولي ثاني يوم وصول الباخرة . وفي يوم ١٣
منه زارنا الناظر المشار اليه وحدد لي ميعاداً للمقابلة صاحب السموّ يوم ١٤ منه
فلما آن الوقت المعين أسرعنا الى السراي وبعد أن تقابلت بالناظر تشرفت
بالمشول بين يدي سموّ السلطان وقد ازددت شرفاً بابتسام سموّه عند مقابلتي . ثم
تنازل بالسؤال عن حالتي وصحتي وبعد خمس دقائق انصرفت شاكرًا

وبعد يومين قدمت الى ناظر الخاصة شيئاً لتقديمه هدية الى أنجال صاحب
السمو الكرام فبعد قليل ورد لي من الناظر الجواب الآتي أذكره بحروفه على علاته

المود الصادق عزيزي توفيق ميخائيل دام اقباله

بما أرسلته الي قد بلغت جلالة حضرة الملوكية وجعله محل القبول وأمرني

أن أبلغك جزيل السلام والسلام

الاقبل

علي بن محمد

ليلة ٢٥ شوال سنة ١٣١٨

ولقد يستغرب المطالع على خطأ وركاكة كتابة ناظر الخاصة كبير عمال السراي
والحال أن هذا الموظف أنه الجميع وهو يكتب العربية ويقرأها أكثر من [سواء]
بعد الباشكاتب فضلاً عن أنه يتكلم الانكليزية والهندية وقد كان معاوناً بالمراكب
التجارية ونال الشهادات التي ثبتت كفاءته في ادارة وحساب مسير السفن ثم حاز
بحسن درايته ومهارته في أشغال السراي نيشانين في مدة وجيزة

وعلى ذكر النياشين أذكر أن لحكومة زنجبار أربعة نياشين: الاول « الكوكب
الدري صنف ثاني » والثاني « الكوكب الدري صنف أول » وكلاهما بشكل نجمة
ومن معدن ملون والثالث « الحمودي صنف ثاني » والرابع « الحمودي صنف أول »
وهما من ذهب خالص والاخير لم يحزه الا بعض من اكابر الموظفين

ومما ينعم به السلطان بخلاف النياشين سيوف متنوعة مختلفة الثمن فمنها ما هو
ذو مقبض من معدن ومنها ما هو من فضة أو ذهب ثم الخلع الثمينة والعبآت
المزركشة بالقصب وهذه ينعم بها غالباً في الاعياد على أغلب عمال وخدام السراي
وانعمد الآن الى ذكر حالتنا فقد كنا منشرحي الصدور نظراً لترحاب القوم
بنا وميلهم الى مرافقتنا وتسليتنا فضلاً عن توفر شروط الراحة لدينا وكال صحتنا وقد
كان جارنا (الذي هو صاحب المنزل الذي استأجرناه وهو رجل هندي كبير)



(ناظر السراي) (خادم السلطان الخصوصي)

يدعونا بعد المصيرة يوماً للركوب معه في عرباته الخشبية والترىض في مزارعه الجميلة . وقد كان يقدم لنا اصناف فواكه كثيرة من مانجو وجوافة وموز ، ولكننا كنا نترك كل ذلك ونميل الى جوز الهند غير الناضج لشرب مائه . ولقد أفرطنا فيه لبرودته وحلاوة مذاقه خصوصاً ما كان منه مقطوعاً من شجره في الحال حتى اذا كنا نقطع عن شرب الماء مستعصين عنه بذلك الشراب المسمى عندهم (ماداف) اتفق أن ذلك الهندي دعانا مرة لتناول طعام الغداء عنده فأجبنا الدعوة ولما انتهينا من تلك الاكلة التي غبنا فيها وغسلنا أيدينا قدم لنا الرجل طبقاً عليه ورق أخضر عريض كورق الخروع وجانب من الثبوة المجبنة وجوزة الطيب ونوع آخر حريف يشبه خشب القرقة وتذاك ، والغرض ان كلاً منا يركب له مضغاً من تلك الاصناف وتسمى عندهم (تامبول) فامتنعنا فأخذ هو وثلاث ضيوف آخرين من الهنود ثم أديرت عليهم المباحق فكان بصافهم أحمر كالدم وهم متعودون ذلك رجالاً ونساءً وأولاداً ويستعملونه في كل وقت كالتدخين ويقولون انه مفيد جداً لتطهير الفم وتقوية الاسنان . فلما عافت أنفسنا منظر المباحق عجلنا بالنزول وأقسمنا أن لا نلبي دعوة كهذه مرة أخرى

ومن عادات تلك البلاد (التكبس) وهو ما يجري عندها أحياناً عقب الاستحمام في الحمامات العمومية وهو يكون عندهم في أي وقت يشعر فيه الانسان بتعب في الجسم ويكون غالباً عند النوم وبعد الاستيقاظ وهي عادة مألوفة في تلك البلاد ، ولقد علمت أنها شائعة شيوعاً عظيماً في بلاد الهند حتى ان من يكون جالساً على احدى القهاوي هناك يدعو قائلاً « تشامي » ومعناها مكبس . فيأتي اليه صبيان (كمن يدعو في بلادنا مساح أحذية فيسرع اليه كثيرون) فيكبسه وهو على قارعة الطريق . ومن رأيي انها مفيدة صحياً وهي غير حسنة أدياً اذا كان المكبس أنثى

بعد أن مضى علينا هناك نحو شهرين رأى زميلي أن يعود للوطن عاجلاً حتى بعد أن يستريح من عناء السفر بعض أيام بإشراف أعماله الصلوية ، أما أنا فرأيت أن أقصد بلاد اليابان أو البقاء بزنجبار فأخذ زميلي في تثبيت عزمي بل في معاتبتني على عدم الوفاء بوعدي اذ كنا اتفقتنا قبل الخروج من الوطن أن نعود معاً وبعد أن طال بنا الاخذ والرد اقتنعتُ بأقواله وانصعتُ لأفكاره ومن ثمّ تأهبنا للعودة

ففي مساء يوم الاربعاء ٢٧ مارت سنة ١٩٠١ ركبنا الباخرة « كاليديونيان » وفي صباح ٢٨ منه عند الساعة الثامنة أفلعنا ونظرنا الى زنجبار النظرة الاخيرة . أما السفينة فكبيرة ومتوفرة بها شروط الراحة الا أن سطحها كان مشحوناً بعمال صينيين عائدين من مدغشكر لبلادهم عن طريق جيبوتي وهيئتهم رثة ووجوههم شاحبة صفراء ضعيفة وشعورهم مضفرة تصل عند أغلبهم الى الساقين وحالتهم قدرة كحالة صفار العمال في الامم الاخرى وبالجملة فإن منظرهم كنيب مقبض جداً ، ومما كان يزيد الركاب انقباضاً منهم اذمانهم على تدخين الافيون ، وكيفية تناطيه هوانهم يوقدون سراجاً صغيراً وفي يد الواحد منهم قصبه تبلغ نصف متر وبأحد طرفيها اناء خزفي وفيه الافيون فيقرّبونه من السراج ويشفطون فتنتشر منه رائحة كريهة مقبضة وقد تضرّر منها كثيرون من ركاب الدرجتين الثانية والثالثة لقرب محلات جلوسهم على السطح منهم ولكن من ذا الذي يستطيع أن يحرمهم من ذلك وهي عادة متأصلة في صغيرهم وكبيرهم

أما طريقة تناولهم الطعام فاني أمتدحها فكل واحد وعاء خصوصي يأكل فيه كما أنهم لا يمسون الطعام بأناملهم وطعامهم الارز المسلوق مع شيء من اللحم وهم يتناولونه بواسطة مقبض من حديد مركب من قطعتين والآلة بسيطة أشبه بقلمين تماماً وبعد انتهاء الطعام يفصلونها



صاحب السياحة وزميله في السياحة الثانية بزنجبار

والبلاء الاكبر انهم كباراً وصغاراً مضروبون بضربة من أشد الضربات
ألا وهي المقامرة فمع ما يظهر عليهم من الضنك والفاقة فانهم يقامرون بعضهم بكل
ما في أيديهم والله مررت مرة عليهم ولاحت مني التفاتة الى ما يلعبونه واذ بكومة
من ذهب وفضة لا ثقل عن خمسة جنيهات معرضة في وسطهم لدور اللعب فوقفت
ريثما التقطها أحدهم ولم يكن اندهاشي أقل من حزن الخاسرين

أما الباخرة فأصبحت وأمست تسير سيراً متواصلاً باعذار ثلاثة عشر ميلاً في
الساعة الواحدة وكان البحر هادئاً جداً (مثل الزيت) حتى في الساعة الثالثة من
صباح يوم الاربعاء ٣ ابريل دخلنا ميناء جيبوتي

اتفق أن توفي أحد الصناع الصينيين قبل منتصف الليل ولكن لما كنا قريبين
من جيبوتي لم تطرح جثته بجرأ حسب الاصول بل أبقوها لانزالها بجيبوتي
ولهذه المناسبة أقول ان من يتوفاه الله بالباخرة قبل وصولها الى أول ميناء
سترسو عليها بأكثر من اثنتي عشر ساعة تطرح جثته بجرأ والكيفية أنهم يبدأون
بعمل الاجراءات القانونية من حيث حصر أمتعته وتدوينها بمحضر والكشف على
الجثة بمعرفة حكيم الباخرة ثم يؤدون الرسوم الدينية لكل حسب دينه وبعد ذلك
تربط في الجثة مثقلات من رصاص حتى لا تطفو على سطح الماء ويجمع الركاب
على اختلاف درجاتهم وكلهم حاسرو الرؤوس من باب احترام الميت مهما كان
وضيعاً ثم تقف الباخرة نحو دقيقتين ومن ثم يرفع البحارة الجثة ويطرحونها من عند
مؤخر السفينة وبذا ينتهي الامر

أما من جهتنا فقد نزلنا البرّ عند الصباح وتناولنا الغذاء بأحد فنادقها ثم عدنا
للباخرة التي أقلمت من هناك في الساعة الثانية بعد الظهر . وعند الساعة الخامسة
من مساء ذلك اليوم رأينا وحشاً بحرياً هائلاً يتجبط في الماء قريباً من الباخرة وبعد

الغروب شاهدنا مناثر لا رشاد السفن حتى نتجنب الصخور ونثقي شرّ الاصطدام بها ثم أنوار بلدة پيريم الانجليزية واستمرّ البحر هادئاً حتى في يوم ٦ منه دوى البحر الاحمر وعلت أمواجه واشتدّ البرد بعد أن كنا بالامس متضايقين من شدة القيظ . وفي صباح ٧ منه ظهرت لنا الشواطئ المصرية وأشباح السويس وعند الساعة الواحدة بعد الظهر ألت الباخرة مرساها فودعنا كل من تعارفنا بهم في الباخرة ثم نزلنا بأحد القوارب وقد قاسينا اتعاباً في قلم الجوازات والجرك والمحافظة في وقت نحن أحوج فيه للراحة وكانت هذه الاتعاب سبباً في اصابة زميلي بالحملى ولذا اضطررنا للبقاء بالسويس بضعة أيام حتى يتعافى وفي يوم الخميس ١١ منه ركبنا القطار الى القاهرة



ولقد يقال أني في سياحتي الاولى والثانية لبثت نحو اثنين وستين يوماً ركباً البحر على ظهور سبع بواخر : خمس فرنساوية واثنين ألمانيتين ، وقد كان معدل أجرتي في سفر البحر عن اليوم الواحد نحو عشرين فرنكاً ما بين ركوبي بالدرجنين الرابعة والثالثة ، أما مجموع المسافة التقريبية التي قطعتها فنحو تسعة آلاف وسبعماية وخمسين ميلاً

كم منزل في الارض يالفه الفتى وحينئذ أبداً لاوّل منزل

على أن هذا القول لا يطبق شملة مهلي الى السفر الى أقطار أخرى سحيقة

عند ما تسنح لي الفرص وتسمح لي

الظروف ان عاجلاً أو آجلاً

والجنون فنون

﴿ تم ﴾

فهرست

صفحة

- ۳ اهداء الكتاب
- ۴ مقدمة
- ۵ الفصل الاول - الرحيل
- ۱۰ « الثاني - ركوب البحر أول مرة
- ۱۷ « الثالث - چيوتي
- ۲۵ « الرابع - ركوب البحر المرة الثانية
- ۳۶ « الخامس - بايرا بيلاد كفور ريا وسوء حالتنا فيها
- ۴۳ « السادس - الاستخدام في السكة الحديدية ووصف العمل وصعوباته
- ۵۵ « السابع - الاخطار وموجودات الغابات والاستشفاء
- ۶۵ « الثامن - السفر الى زنجبار ومشاهدها
- ۸۲ « التاسع - زنجبار . عيد الفطر . الاستخدام . السلطان السراي السلطانية
- ۹۴ « العاشر - أقوال عمومية عن زنجبار . العود الى الوطن
- ۱۰۶ « الحادي عشر - السفر الى برّ الزنج ثانية والعود الى الوطن